

مع دراسة تحليلية تقويمية

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

تحقيق ودراسة

الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي

أستاذ الفلسفة الإسلامية ومقارنة الأديان المساعد
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

دار الجيل
بيروت

مكتبة الزهراء
بحرم جامعة القاهرة

الإهـداء

إلى وَالِدِي الْحَبيب ،

سَائلاً المَوْلَى سُبْحَانَه وتَعَالَى ـ لَكَ أحْسَنَ المثُوبَة ، وَخَيْرَ الجَزَاء ، وَأنْ أكُون فِي ميزَانِ حَسَنَاتِكَ ، وَأن يَجْمَعَنِي بِكَ في مُسْتَقَرِّ رَحْمَتِه

الطبعَة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله ، وآله وصحبه ومن والاه .

وبعد :

فقد لقيت رسالة الجاحظ الوجيزة المسمّاة : « المختار في الرد على النّصارى » ، عناية المستشرقِين ، يوشَع فنْكل ، وريشَر ، ثم الأستاذ عبد السلام هارون ، من حيث طبَاعتُها ونشرُها ، لكن أحداً من الباحثين — فيما نعلم — لم يتوافر على دراستها وتحليلها وتقويمها ، مع ما تستأهله لأهميتها المتميزة لأنها من أقدم الرسائل التي وصلتنا في حقل الردود على أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، ومجادلتهم ، ولم تصلنا رسائل أخرى لكتّاب معاصرين للجاحظ أو سابقين عليه اللهم إلاّ كتاب المهتدي علي بن ربّن الطبري : « الدين والدولة في إثبات نبوّة سيدنا محمد » ، ولم نعرف شيئاً عنها إلاّ من الإشارات التي احتفظت بها بعض الكتب التي أفادت منها ، أو من خلال ردود بعض النصارى عليها ، مثل رد يحيى بن عديّ اليعقوبي النصراني على رسالة أبي يوسف يعقوب الكندي الفيلسوف ، حول إبطال التثليث النصراني على أصول الفلسفة ، ورد عيسى بن إسحق بن زرعة على كتاب أبي القاسم عبد الله بن أحمد البلخي المسمى « أوائل الأدلة » ، وفي كلام عيسى بن زرعة هذا إشارات إلى ردود الإسكافي المتكلم على النصارى .

من أجل ذلك ــ وغيره ــ توجّهت ــ مستعيناً بالله تعالى لدراسة هذه الرسالة وتحليلها، وبعد أن أوشكتُ على الانتهاء من هذه الدراسة، رأيت أن أضُمَّ إليها النصّ الأصليّ الكامل لرسالة الجاحظ بعد تحريره والتعليق عليه، وذلك للسببين الرئيسين التاليين:

الأول: أن الناشِرين السَّابقين قد حشدوا هذه الرسالة حشداً مع رسائل أخرى، لا تربطها بها رابطة، ولا تصلها بها صلة موضوعية مثل: ذم أخلاق الكتّاب، والقيان، وغير ذلك، ولعلّ الذي دفع الطابعين إلى هذا الصنيع هو استصغارهم حجم الرسالة، أو عدم التنبُّه إلى خطورة موضوعها، وتفرُّده، والقيمة الوثائقية التي تنطوي عليها.

الثاني: كما أن هذه الرسالة لم تحظ بعناية الباحثين المتمثلة في إفرادها بالدراسة والتحليل والنشر، للاعتبارات العلمية الموضوعية المشار إليها، فإنها لم تحظ ــ من الناشرين السابقين ــ بالتعليق عليها، اللهم إلا تعليقات المحقق الأستاذ عبد السلام هارون في نشرته التي حشد فيها هذه الرسالة مع بقية رسائل الجاحظ الأخرى.

ولقد نظر المحقق الكبير الأستاذ عبد السلام هارون إلى هذه الرسالة على أنها نص أدبي رفيع فحسب ــ مثل بقية رسائل الجاحظ ــ ومن ثم جاءت تعليقاته التي قيّدها عليها في معظمها ــ تفسيرات أدبية بيانية ولغوية في المقام الأول.

ومن ناحيتي فإني لا أقلل البتة من أهميتها أو فائدتها، إذ كانت بحق لفتات ذكية وعميقة، تكشف عن خبرة أصيلة، وحسٍّ رهيف، وذوق أدبي رفيع، كما صحَّحتْ بعض ما وقع فيه المستشرقون من أخطاء في فهم النصّ وقراءته، لكنها تركت الباب مفتوحاً، والحاجة ماسّة إلى تعليقات علميّة، يُنظر فيها إلى الرسالة على أنها وثيقة علمية من طراز نادر في حقل مقارنة الأديان بعامة، والجدل الديني

ضد أهل الكتاب بخاصة ، وليست رسالة اعتيادية ، إذْ أنها أقدم أثرٍ وصل إلينا من آثار هذا الحقل العلمي الثريّ لعالم مسلم .

ونرجو أن نكون بهذه النشرة قد وفقنا وقدمنا عملاً مفيداً ونسأل الله ــ سبحانه وتعالى ــ الإخلاص والسّداد ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

دكتور محمد عبد الله الشرقاوي

غرة رجب سنة ١٤٠٤ هـ

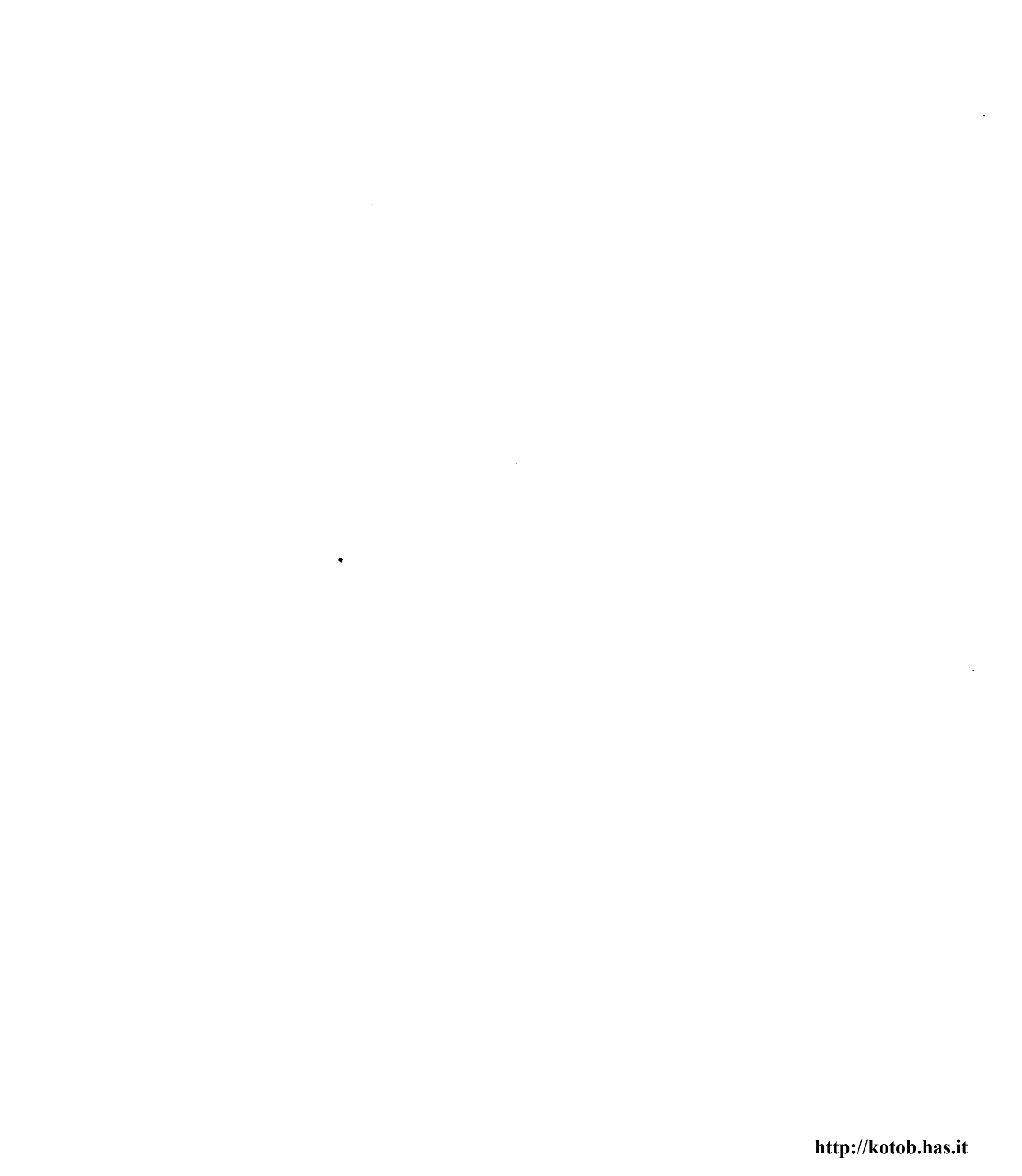
٢ أبريل سنة ١٩٨٤ م

القِسمُ الأولُ

دراسة تحليلية نقدية لرسالة الجاحظ
«المختار في الرد على النصارى»

ويتضمن :

- نسخ الرسالة وتوثيق نسبتها لمؤلفها .
- أهميتها في حقل مقارنة الأديان والجدل الديني .
- بين ابن قتيبة والجاحظ .
- منهج الرسالة .
- لماذا كانت النصارى أحب إلى عوام المسلمين من اليهود ؟
- نشر النصارى للإلحاد والزندقة وإثارتهم للشبهات .
- غموض قولهم في المسيح وشدة تَعَقُّده .
- إنكار النصارى لكلام عيسى في المهد ، واتهامهم المسلمين بالكذب عليه في ذلك .
- انقطاعُ سند كتبهم وتناقض محتواها .
- نقض الجاحظ تأسيس دعواهم بُنُوَّة عيسى لله .
- تفنيده بعض مزاعم اليهود .
- مصادر ثقافته في حقل مقارنة الأديان والجدل الديني .
- متى ترجم الإنجيل إلى اللسان العربي ؟
- خلاصة المسألة .
- خاتمة الدراسة .



«١»

تعد هذه الرسالة، وعنوانها: «المختار في الرد على النصارى»، من أوجز رسائل الجاحظ [١] قاطبة، وهي قد طبعت ضمن مجموع به ثلاث رسائل له سعى في نشرها [٢] المستشرق: «يوشع فنكل Y. Finkel» وكان قد استنسخها عن نسخة خطية محفوظة في الخزانة التيمورية برقم (١٩ أدب)، وقابلها على نسخة أخرى محفوظة بالخزانة الأزهرية تحت رقم (٦٨٣٦). وتشير المصادر إلى أنه توجد منها نسخة خطية أخرى في المتحف البريطاني تحت رقم (١٢٩ ط)، كما أن المستشرق «رتشر» «Recher» قد نشرها ضمن مجموع آخر من رسائل الجاحظ في مدينة «شتوتجارت» بألمانيا سنة ١٩٣١م [٣]. ومن المعروف أن هذه الرسالة قد طبعت على هامش كتاب «الكامل» للمبرّد سنة ١٣٢٣هـ ضمن مجموعة من رسائل الجاحظ، اختارها ــ من قبل ــ رجل يُدعى عبيد الله ابن حسّان، ثم نشرها ــ أخيراً ــ الأستاذ عبد السلام هارون في ذيل الجزء الثالث من مجموعة رسائل الجاحظ.

ولقد أشار الجاحظ نفسه إلى رسالته هذه في كتاب «الحيوان» [٤] بقوله:

---

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ولد سنة ١٦٣هـ، وتوفي سنة ٢٥٥هـ، وقيل سنة ٢٥٠هـ، من أئمة المعتزلة، ورأس فرقة الجاحظية المنسوبة اليه، ومن كبار الأدباء والنقاد، بصري المولد والوفاة، أنظر في ترجمته:
ــ شذرات الذهب جـ ٢ ص ١٢١ ــ ١٢٢، الأنساب للسمعاني ص١١٨، ــ وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٤٠ ــ ١٤٤ ــ معجم الأدباء لياقوت، جـ١٦ ص ٧٤ ــ ١١٤ ــ لسان الميزان، جـ٢ ص ٣٥٥ ــ ٣٥٧ ــ الاعلام جـ٥ ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠.

(٢) طبعت في المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٤هـ، وأعيد طبعها سنة ١٣٨٢هـ.

(٣) أنظر مقدمة يوشع فنكل للمجموع المشار اليه ص٣ ــ ٤، وأنظر للاستاذ عبد السلام هارون: مقدمة الجزء الاول من رسائل الجاحظ، طبعة الخانجي بمصر سنة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

(٤) جـ ١ ص ٩.

«... وكتابي على النصارى واليهود». هذا ولئن كانت الرسالة تتناول بالجدل والرد: اليهودَ والنصارى معاً، فإن تسميتها قد وردت مختصرة مقصورة على النصارى فحسب، في المخطوط منها والمطبوع على السّواء، وأشار إليها ابن قتيبة في كتابه: «تأويل مختلف الحديث»[1]، والقاضي عبد الجبار في كتابه: «المغني»[2]، على ما سنذكر فيما بعد إن شاء الله. وللجاحظ رسالة أخرى في الرد على النصارى تسمى: (الرسالة العسلية)[3].

«٢»

القيمة العلمية للرسالة

تكتسب هذه الرسالة أهميةً عظيمة، وتنبع أهميتها من كونها من أقدم النصوص التي وصلتنا، مُصوِّرة حركة الجدل الديني ــ في البيئة الإسلامية ــ ضد اليهود والنصارى، كما أن هذه الرسالة تكشف عن جانب هام من عبقرية الجاحظ، فهو ليس أديباً ناقداً متكلماً فحسب، لكنه ــ إلى جانب ذلك ــ عالم بالأديان، مُطلعٌ على كتبها، مُلِمٌّ بدقائق عقائدها، وتفاصيل مبادئها، كما أنها ــ مع غيرها من الكتب والرسائل في الموضوع نفسه ــ تبين عن الجهد العظيم الذي بذله المتكلمون المتقدمون ــ مثل النظام، والإسكافي، والعلاّف، والجاحظ، والقاضي عبد الجبار وأبي عيسى الورّاق والبلخي الكعبي والجويني والغزالي ومن قبلهم الكندي الفيلسوف ــ في مواجهة التحديات الخارجية الخطيرة المتمثلة في مواقف اليهود والنصارى والمذاهب الوضعية كالمجوسية والثنوية الزرادشتية والبراهمية

(١) ص ٥٩ من نشرة محمد زهري النجار، طبعة دار الجيل ببيروت ١٣٩٣ هـ، ١٩٧٣ م.
(٢) جـ ٥ بتحقيق محمود الخضيري، نشر الهيئة العامة للكتاب.
(٣) لم تصلنا هذه الرسالة، لكن أطلع عليها القاضي عبد الجبار، وذكر ذلك في كتابه القيم: (تثبيت دلائل النبوة) بتحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان، نشر بيروت.

وغيرها . وحريّ بنَا في هذا المقام أن نذكِّر بأنه على الرغم من كون جهود المتكلمين في هذا المجال أعظم وأنفع وأصح ، فإن الدارسين لم يولوا هذه الناحية ما تستحقه من عناية ورعاية بل تجاوزوها إلى البحث في خلافات المتكلمين المذهبية ، وصراعاتهم الداخلية .. إلخ ، مما لا يفيد ، ولا يثري ، بل يشتت ويبدد .

« ٣ »

بين ابن قتيبة والجاحظ

جاء في كتاب « تأويل مختلف الحديث » [١] عند كلام ابن قتيبة عن الجاحظ قوله :

« ... ويعمل ــ أي الجاحظ ــ كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فإذا صار إلى الرد عليهم ، تجوّز في الحجة ، كأنّه إنما يريد تنبيهَهم على ما لا يعرفون ، وتشكيكَ الضَعَفَةِ من المسلمين .. » .

أقول : لئن كان في هذا الاقتباس توثيق لنسبة الرسالة للجاحظ ، فإنّه يعكس موقف الإمام ابن قتيبة من علماء الكلام عموماً ، ومن المعتزلة خصوصاً [٢] ، وبعيداً عن الخوض في موقف المحدثين من المتكلمين ــ ونحن نقرّهم على جانب كبير منه ــ وبعد إمعان النظر في رسالة « الرد على النّصارى » نقول : إن الرسالة وإنْ بدأها الجاحظ بسوق حجج النصارى على المسلمين ــ لدواعٍ فنية منهجية ــ فإنه لم يتجوّز في الرد عليهم ، لكنه اجتهد في نقض تأسيسهم ، وهدم مذهبهم ،

---

(١) ص ٥٩ ــ ٦٠ ، وابن قتيبة : هو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوي الكوفي ، توفي سنة ٢٧٦ هـ « أنظر الفهرست ص ١١٥) .

(٢) وموقفه ــ رحمه الله ــ من الجاحظ ، موقف المنافس على المكانة الأدبية ، ومن يقرأ (عيون الأخبار) و (أدب الكاتب) له ، يدرك ذلك كما أن الرجلين كانا متعاصرين ، والمعاصرة حجاب ، كما قال السابقون .

وسيظهر ذلك من عرضنا لمحتوى الرسالة، ومن النصوص المطولة التي سنقتبسها منها، وعلى ذلك فإنّ القول بأنّه قصد إلى تنبيه اليهود والنصارى إلى ما لا يعرفون، وتشكيك الضعفة من المسلمين ـــ كما ذكر ابن قتيبة رحمه الله ـــ لا وجه له البتة؛ خصوصاً وأنّ الجاحظ نفسه يذكر أن غرضه من كتابه هو: «كسر النصرانية»(١) بالحجة والبرهان.

«٤»

منهج الجاحظ في رسالته

لقد عرض أبو عثمان مسائل النصارى ضد المسلمين أولا بعد أن هذّبها وقوّمها، ثم أجاب عنها مسألةً مسألةً فألزم وأفحم، ثم سألهم بعد ذلك سؤالات دامغة عن ديانتهم ومعتقداتهم ومذاهبهم، يقول الجاحظ:

«.. قد قلنا في جواباتهم، وقوّمنا مسائلهم بما لم يكونوا ليبلغوه لأنفسهم ليكون الدليل تاماً والجواب جامعاً، وليعلم من قرأ هذا الكتاب وتدبّر هذا الجواب أنّا لم نغتنم عجزهم، ولم ننتهز غِرّتهم، وأن الإدلال بالحجة، والثقة بالفلج والنصرة هو الذي دعانا إلى أن نخبر عنهم بما ليس عندهم، وألا نقول في مسألتهم بمعنى لم ينته إليه منبه أو يشر إليه مشير، وألا يوردوا ـــ فيما يستقبلون ـــ على ضعفائنا ومن قصر نظره منا شيئاً إلا والجواب قد سلف فيه وألسنتهم قد أدلت به. وسنسألهم إن شاء الله ونجيب عنهم، ونستقصي لهم في جواباتهم كما سألنا لهم أنفسنا واستقصينا لهم في مسائلهم..»(٢).

---

(١) ص ٣٢ من نشرة فنكل، وجميع مقتبساتنا التالية من هذه النشرة.

(٢) ص ٦٧ من الرسالة.

والرسالة ـ بذلك ـ عبارة عن استعراض لمطاعن النصارى على الإسلام، ثم تفنيدها ودحضها، يتلو ذلك سؤالات مفحمة يطرحها أبو عثمان على النصارى، ثم مجادلة عقلية دينية لليهود، ويبدأ رسالته ـ بعد حمد الله والثناء عليه بقوله:

«... أما بعد: فقد قرأت كتابكم، وفهمت ما ذكرتم فيه من مسائل النصارى قبلكم، وما دخل على قلوب أحداثكم وضعفائكم من اللبس، والذي خفتموه على جواباتهم من العجز، وما سألتم من إقرارهم بالمسائل ومن حسن معونتهم بالجواب» (١).

ومهما يكن من أمر أصحاب الكتاب هؤلاء، لأنه لم يمط اللثام عنهم، وهل كانوا سائلين حقيقيين، أو أنه صاغ هذه الأسئلة على لسانهم كعادة بعض الكتاب آنذاك، فإن هذه الأسئلة تفصح لنا عن المناخ الجدلي بين النصارى والمسلمين، وتكشف عن رغبة الجاحظ الوثيقة في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، كما تبرز مقدرته وكفايته للاضطلاع بهذه المهمة الشاقة التي لا ينبغي أن يقوم بها إلا العلماء العارفون أما أن «كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم، وليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد» (٢) فذلك هو البلاء في رأي أبي عثمان.

«وذكرتم أنهم قالوا: إن الدليل على أن كتابنا باطل وأمرنا فاسد، أننا ندَّعي عليهم ما لا يعرفونه».

ثم يقول شارحاً مهمته:

«وسنقول في جميع ما ورد علينا من مسائلكم، وفيما لا يقع إليكم من مسائلهم بالشواهد الظاهرة، والحجج القوية والأدلة الاضرارية، ثم نسألهم بعد

---

(١) ص ١٢.
(٢) ص ٢٠.

جوابنا إياهم عن وجوه يعوفون بها انتقاض قولهم ، وانتثار مذهبهم ، وتهافت دينهم ، ونحن نعوذ بالله من التكلف ، وانتحال ما لا نحسن ، ونسأله القصد في القول والعمل ، وأن يكون ذلك لوجهه ، ولنصرة دينه ، إنه قريب مجيب »(١) .

« ٥ »

لماذا كانت النصارى أحب إلى عوام المسلمين ؟

بعد أن يظهر إخلاص نيته ، وتمحيص قصده لوجه الله ونصرة دينه ، وأنه لا يقبل على ما لا يحسن ينتقل إلى مسألة مهمة ـــ ويسهب في تفصيلها وتحليلها بما لم يسبق إليه ـــ وهي :

لماذا كانت النصارى أحبّ إلى عوام المسلمين من المجوس وأسلم صدراً عندهم من اليهود ، وأقرب مودة ، وأقل غائلة وأصغر كفراً وأهون عذاباً ؟

ويجيب على ذلك قائلاً : ولذلك أسباب كثيرة ووجوه واضحة يعرفها من نظر ، ويجهلها من لم ينظر ، منها :

الجوار ، لأن اليهود كانوا جيران المسلمين بيثرب وغيرها « وعداوة الجيران شبيهة بعداوة الأقارب في شدة التمكن ، وثبات الحقد ، وإنما يعادي الإنسان من يعرف ، ويميل على من يرى ، ويناقض من يشاكل ، وتبدو له عيوب من يخالط ، وعلى قدر الحب والقرب يكون البعد والبغض » .

ويؤسس على نظرته النفسية الأخلاقية هذه ، تفسيرَه لوجه من وجوه العلاقة بين المسلمين ويهود في المدينة .. « ..فلما صار المهاجرون لليهود جيراناً ، وقد كانت

---

(١) ص ١٣ .

الأنصار متقدمة الجوار، مشاركة في الدار، حسدتهم اليهود على نعمة الدين، والاجتماع بعد الافتراق.. وشبهوا على العوام، واستمالوا الضعفة، ومالأوا الأعداء والحسَدة، ثم جاوزوا الطعن وإدخال الشبهة إلى المناجزة والمنابذة بالعداوة... وترادف لذلك الغيظ، وتضاعف البغض وتمكن الحقد» (١).

وفي المقابل «كانت النصارى ــ لبعد ديارهم من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ومهاجَره ــ لا يتكلفون طعناً، ولا يثيرون كيداً ولا يجمعون على حرب»، وينتهي الجاحظ إلى أن ذلك كان أول الأسباب التي غلّظت القلوب على اليهود وليّنتها على النصارى..

ثم كان من أمر المهاجرين إلى الحبشة واعتمادهم على تلك الجهة ما حبَّبهم إلى عوام المسلمين، «ومن شأن الناس حب من اصطنع إليهم خيراً، أو جرى على يديه، أراد اللهَ بذلك أو لم يرده، وبقصد كان أم باتفاق».

وأمر آخر، وهو من أمتن أسبابهم وأقوى أمورهم، وهو «تأويل آية غلطت فيها العامة، حتى نازعت الخاصة، وحفظتها النصارى، واحتجت، واستمالت قلوب الرعاع والسِّفْلة، وهو قول الله تعالى:

﴿لتَجدَنَّ أشَدَّ النّاسِ عَدَاوَةً لِلّذِين آمَنُوا الْيَهُودَ والذِينَ أشْرَكُوا، وَلَتَجدَنَّ أقْرَبَهُمْ موَدَّةً للّذينَ آمنوا الذين قَالُوا إنَّا نصارى ــ إلى قوله ــ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِين﴾ (٢).

وفي نفس الآية أعظم الدليل على أن الله تعالى لم يعن هؤلاء النصارى (٣)،

---

(١) ص ١٤.

(٢) سورة المائدة آية ٨٢.

(٣) يعني: النسطورية، لأنه ذكر اليعقوبية والملكانية فيما بعد وهذه هي فرق النصارى الكبرى آنذاك، وبعد انعقاد مجامع (خلقدونيا سنة ٤٥١ م، والقسطنطينية الثاني سنة ٥٥٣ م) تحولت الملكانية الى كاثوليكية أي: كونية عالمية، واليعقوبية (أتباع يعقوب براديوس) الى أرثوذكس أي: مستقيمة =

ولا أشباههم الملكانية واليعقوبية ، وإنما عني ضرْبَ بَحِيرا [1] ، أوْ ضرب الرهبان الذين كان يخدمهم سلْمان (رضي الله عنه) » .

وهناك سبب آخر ، هو أن النصرانية كانت فاشية في العرب إلا في « مُضرَ » فلم تغلب عليها اليهودية ولم تفش فيها النصرانية ولا المجوسية ، و « غلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها : على لخم وغسان والحارث بن كعب بنجران وقضاعة وطيئ .. وفي قبائل كثيرة وأحياء معروفة ... ، وجاء الإسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة (عربية) إلاّ ما كان من ناس من اليمانية ونُبَـذ يسيرة من إياد وربيعة ، ومعظم اليهود إنما كان بيثرب وتيماء ووادي القرى وفي ولد هارون دون العرب ، فعطف قلوب العرب على النصارى الملك الذي كان فيهم » .

ومن بين الأسباب التي عطفت قلوب عوام المسلمين على النصارى أنهم رأوا فيهم مُلْكاً قائماً ، وأن فيهم عرباً كثيرة ، وأن بنات الروم ولدن لملوك الإسلام ، وأن في النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين ، فصاروا بذلك ــ عندهم ــ عقلاء وفلاسفة حكماء ، ولم يروا ذلك في اليهود « لأن اليهود ترى أن النظر في الفلسفة كفر ، والكلام في الدين بدعة ، وأنه مجلبة لكل شبهة ، وأنه لا علم إلا ما كان في التوراة وكتب الأنبياء ، وأن الإيمان بالطب وتصديق المنجمين (الفلكيين) من أسباب الزندقة والخروج إلى الدهرية ، والخلاف على الأسلاف وأهل القدوة » [2] .

= الرأي ، وبد مجمع القسطنطينية الرابع سنة ٨٦٩م انقسمت الكنيسة الى كنيستين : شرقية وقاعدتها القسطنطينية وغربية كاثوليكية ، وقاعدتها روما ، ثم جاء « لو ثيروس » الالماني سنة ١٥١٧م فانشق على كنيسة روما ونشأت سنة ١٥٢١م كنيسة ثالثة كبرى هي : البروتستانتية ، أي : الكنيسة المحتجة على تجاوزات الكاثوليك ... وكل كنيسة من هذه الكنائس تضم فرقاً متعددة ومذاهب شتى ..

(١) عن (بحيرا) الراهب .

(٢) ص ١٤ من الرسالة ، وأنظر في تفصيل ذلك كتاب : إفحام اليهود للإمام المهتدي السموأل بن يحيى المغربي توفي سنة ٥٧٠ هـ ، وللباحث اليهودي جورج فيدا : الفكر اليهودي وتأثره بالفلسفة الإسلامية ، ترجمة د. علي سامي النشار وعباس الشربيني ، ط ٢ بالاسكندرية ، وأنظر كتاب =

ومما عظم النصارى في قلوب العوام وحببهم إلى الطغام أن منهم كتاب السلاطين وفراشي الملوك وأطباء الأشراف والعطارين والصيارفة، ولا تجد اليهودي إلاّ صباغاً أو دباغاً أو حجاماً أو قصاباً أو شعاباً (١).

« ٦ »

خطر النصارى المتمثل في نشر الإلحاد والزندقة وإثارة الشبهات

بعد أن أفاض في تحليل الأسباب التي ليّنت قلوب عامة المسلمين على النصارى، انبرى يوضح خطرهم على المسلمين بشكل عام، فقال:

« ودينهم — يرحمك الله — يضاهي الزندقة، ويناسب في بعض وجوهه قول الدهرية، وهم من أسباب كل حيرة وشبهة » .. « والدليل على ذلك أنّا لم نر أهل ملة قط أكثر زندقة من النصارى، ولا أكثر متحيّراً أو مترنحاً منهم، ألا ترى

= الباحث اليهودي نفتالي فيد: التأثيرات الاسلامية في العبادة اليهودية، ترجمة الدكتور محمد سالم الجرح، وكذلك كتاب ديلاسي أوليري: الفكر العربي ومكانه في التاريخ، ترجمة د. تمام حسان، ونشر عالم الكتب بالقاهرة.

ويحمل الجاحظ حملة شديدة على ظن عوام المسلمين — هذا — بالنصارى قائلاً: ولو علمت العوام أن النصارى والروم ليست لهم حكمة ولا بيان ولا بعد رؤية، الا حكمة الكف من الخرط والنجر والتصوير وحياكة البزيون — السندس — لاخرجتهم من حدود الادباء، ولمحتهم من ديوان الفلاسفة الحكماء، لأن كتاب المنطق والكون والفساد وكتاب العلوي وغير ذلك لأرسطوطاليس، وليس بروميّ ولا نصراني، وكتاب المجسطي لبطليموس وليس بروميّ ولا نصراني، وكتاب اقليدس لاقليدس وليس بروميّ ولا نصراني وكتاب الطب لجالينوس ولم يكن روميا ولا نصرانيا، وكذلك كتب ديمقراط وبقراط وأفلاطون وفلان وفلان.

هؤلاء أناس من أمة قد بادوا وبقيت آثار عقولهم، وهم اليونانيون ودينهم غير دينهم، وأدبهم غير أدبهم، أولئك علماء، وهؤلاء صناع ص٧.

وهذه فكرة جاحظية معروفة لا يفتأ يكررها على صورة أو أخرى في كثير من كتبه ورسائله.

(١) ص ١٧.

أن أكثر من قتل في الزندقة ــ ممن كان ينتحل الإسلام ويظهره هم الذين آباؤهم أو أمهاتهم نصارى ؟.. على أنك لو عددت اليوم أهل الظنة ومواضع التهمة لم تجد أكثرهم إلاّ كذلك » [1] .

ويرى أبو عثمان ــ إلى جانب ذلك ــ أن فيهم « شدة المعاندة واللجاجة والإرصاد لأهل الإسلام بكل مكيدة » [2] .

أمّا عن خطرهم المباشر فيقول :

« .. إن هذه الأمة ــ الإسلامية ــ لم تبتل باليهود ولا المجوس ولا الصابئين كما ابتليت بالنصارى [3] ، وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا ــ ظاهراً ــ

---

(١) نفس المرجع .

(٢) ص ١٨ .

(٣) نحن لا نقر الجاحظ على هذا الرأي ؛ لأن الأمة الإسلامية قد ابتليت بهؤلاء جميعاً : باليهود والصابئين والمجوس والنصارى ، وجهود المتكلمين الأوائل ــ والجاحظ واحد منهم ــ تبرز لنا خطورة هؤلاء جميعاً ، وعمق تحديهم للإسلام والمسلمين . وربما كان النصارى أنشط من غيرهم في إثارة الشبهات وبثّها وإذاعتها بين عامة المسلمين للتلبيس على الضعفاء منهم مثل كتابات يوحنا النيقي ، ويوحنا الدمشقي ، والمجادلة التي لفّقها النصارى بين عبد المسيح بن إسحاق الكندي النصراني وعبدالله بن إسماعيل الهاشمي .

ولقد درس هذه المجادلة من المستشرقين كل من : وكاسكل ، وموير ، وكازانوفا ، وبرجشتراسر ، وبول كراوس ، وفريتسن ، وروست ، وماسنيون ، ومن المسلمين الدكتور محمد حمدي البكري في مجلة كلية آداب القاهرة العدد ٩ / سنة ١٩٤٧ م / ص ٢٩ ــ ٤٩ .

أنظر للدكتور فؤاد سزكين تاريخ التراث العربي ، المجلد الخاص بالعقيدة والتصوف طبعة جامعة الإمام والمجادلات التي وقعت بالأندلس وتمخضت عن بعض الكتب التي منها : مقامع هامات الصلبان للخزرجي والإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام للقرطبي ، وجواب أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا إلى المقتدر بالله أمير سرقسطة ، وكتابات أبي الطيب النصراني وعدي بن يحيى ضد الإسكافي والبلخي والوراق ، وكتاب رسالة ميزان الصدق المفرق بين أهل الباطل وأهل الحق لأبي مروان اليحصبي عبد الملك بن مسرة في مجاوبته عن كتاب أساقفة النصارى إليه [أنظر فهرسة ابن خير الإشبيلي] ، وكتاب الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة للقرافي ، وإظهار الحق ، والمناظرة الكبرى بين رحمة الله الهندي والقس الدكتور فندر.. والخ .. إلخ .

والضعيف بالإسناد من روايتنا، والمتشابه من آي كتابنا، ثم يخلون بضعفائنا، ويسألون عنها عوامنا، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين، وحتى مع ذلك ربما (تجرأوا) (١) على علمائنا وأهل الأقدار منا، ويشغبون على القوي، ويلبسون على الضعيف».

ويرى أبو عثمان أن النصارى قد كانوا بمثابة الجسر الذي عبرت عليه المذاهب الفاسدة الغالية والملحدة إلى البيئة الإسلامية، «فلولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغبيائنا وظرفائنا ومجاننا وأخداننا شيء من كتب المثانية (٢) والديصانية (٣) والمرقونية (٤) والغلانية (٥)، ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى، وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها، ومخلاة في أيدي ورثتها، فكل سُخْنَة (٦) عَيْن في أحداثنا وأغبيائنا فمن قبلهم كان أولها.. على أن بين دينهم وبين الزندقة نسباً، وأنهم يَحنون إلى ذلك المذهب».

---

(١) قرأ Finkel هذه الكلمة من الاصول المخطوطة (تبرأوا) وهو خطأ يأباه السياق.

(٢) لعلها البنانية، وهم من الغلاة القائلين بالهية أمير المؤمنين علي، وقالوا: ولعلها المنانية.

(٣) يدينون بالنور مصدراً للخير قصداً واختياراً، وبالظلام مصدراً للشر طبعاً واضطراراً، وهم مجوس.

(٤) يدينون بالنور والظلام، ومعهما أصل ثالث دون النور وفوق الظلام، مهمته التعديل وهو سبب المزاج.

(٥) لعلها العليائية، وهم أصحاب علياء بن ذراع، وكان يفضل عليا على محمد صلى الله عليه وسلم.
أنظر للشهرستاني: الملل والنحل، ومقالات الاسلاميين للأشعري، والفرق بين الفرق للبغدادي، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للفخر الرازي بتحقيق الدكتور النشار.

(٦) ص ٢٠، سخنة العين: نقيض قرتها، أنظر اللسان لابن منظور، طبعة يوسف خياط.

« ٧ »

غموض قولهم في المسيح

يلفت الجاحظ الأذهان إلى مسألة في غاية الخطورة ، ألا إنها غموض قولهم في المسيح ، صلى الله عليه وسلم ، وتعقده وتدابره وتعانده ، وكان الجاحظ ـ حسب علمنا ـ أوّل من ناقش هذه النقطة ، وأخذها عنه علماء المسلمين الذين جاءوا بعده ، واهتموا بالمقارنة بين الأديان ، مثل القاضي عبد الجبار الأسد أبادي(١) ، وأبي الوليد الباجي(٢) ، والقرطبي(٣) ، والخزرجي(٤) ، وأبي المعالي الجويني(٥) ، وأبي حامد الغزالي(٦) ، وأحمد بن إدريس القرافي الصنهاجي(٧) ، وأحمد بن تيمية(٨) وغيرهم ، وكذلك أخذها عنه جل من كان على النصرانية ودخل في دين الإسلام وكتب في تفنيد مزاعم النصارى ونذكر منهم : الحسن بن أيوب ، في رسالة إلى أخيه علي بن أيوب ، وقد ضمنها حمد بن تيمية كتابه « الجواب الصحيح » والقس الكاثوليكي الاندلسي أنسيلمو تورميدا في كتابه « تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب » ونصر بن يحيى بن عيسى بن سعيد المتطبب في كتابه : « النصيحة الإيمانية بفضح الملة النصرانية » ، وعيسى بن حِزلة في « رسالة إلى إيليا القس » ، وزيادة النصب رأس في : « البحث الصريح » .

يقول الجاحظ : « ولو جهدت بكل جهدك ، وجمعت كل عقلك أن تفهم قولهم

---

(١) في كتابيه : المغني ، وتثبيت دلائل النبوة .
(٢) في جوابه على رسالة راهب فرنسا .
(٣) في كتابه : الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام .
(٤) في كتابه : مقامع هامات الصلبان .
(٥) في : شفاء الغليل في الرد على من بدّل التوراة والإنجيل .
(٦) في : الرد الجميل .
(٧) في : الأجوبة الفاخرة .
(٨) في الجواب الصحيح .

في المسيح ، لما قدرت عليه ، حتى تعرف به حدّ النصرانية ، وخاصة قولهم في الإلهية ، وكيف نقدر على ذلك ؟ وأنت لو خلوت ونصرانياً نسطورياً فسألته عن قولهم في المسيح ، لقال لك قولاً ، ثم إن خلوت بأخيه لأمه وأبيه وهو نسطوري مثله ، فسألته عن قولهم في المسيح ، لأتاك بخلاف قول أخيه وضده .. وكذلك جميع الملكانية واليعقوبية ، ولذلك صرنا لا نعقل حقيقة النصرانية ، كما نعرف جميع الأديان . على أنهم يزعمون أن الدين لا يخرج في القياس ، ولا يقوم على المسائل ، ولا يثبت في الامتحان ، وإنما هو بالتسليم لما في الكتب والتقليد للأسلاف .. ولعمري أنّ من كان دينه دينهم ليجب عليه أن يعتذر بعذرهم .. » (١) .

ثم يعرض إلى مسائل في دينهم مثل عدم نكاح الجثاليق والمطارنة والأساقفة والرهبان والرواهب وعدم تَطلبهم الوَلَد وأنّه مع ذلك يزداد عددهم ولا يتناقص ، ومثل قلة رحمتهم وفساد قلوبهم في ارتكابهم الخصاء وهو أشد المثلة وأعظم ما ركبه إنسان ، ومن ذلك أن النّصراني وإن كان أنظف ثوباً ، وأحسن صناعة ، وأقل مساخة ، فإنّ باطنه ألأم وأقذر وأسمج ، لأنه أقلف ، ولا يغتسل من الجنابة ، ويأكل لحم الخنزير ، وامرأته جنب لا تطهر من الحيض ولا من النفاس ، ويغشاها في الطمث ، وهي مع ذلك غير مختونة ... وباختصار فإنه يستخلص من ذلك وأشباهه فساد أحكامهم ، وقصور نظمهم ، وأنهم « مع شرار طبائعهم وغلبة

---

(١) ص ٢٢ ، ويحسن مقارنة هذا بكلام الغزالي في « الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الانجيل » ص ١٠٦ — ١٠٨ بتحقيقنا ، طبعة الرياض ١٤٠٣ هـ ، وبكلام القاضي عبد الجبار في : « تثبيت دلائل النبوة » بتحقيق ، عبد الكريم العثمان جـ ١ طبعة دار العربية بيروت ، وفي الجزء الخامس من موسوعته : « المغني » بتحقيق الاستاذ محمود الخضيري ، طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر بمصر ، سلسلة : تراثنا .

هذا ، ولا نقر صديقنا الدكتور محمود حماية على مؤاخذته للجاحظ بأنه رغم ذكائه وألمعيته لم يفهم عقائد النصارى . ونرى أن الجاحظ يشير إلى غموض عقيدتهم في المسيح وأن العقل لا يقبلها . والمنطق السليم يمجها ، وهذا معروف للباحثين نصارى ومسلمين . أنظر مقدمة تحفة الأريب .

شهواتهم ليس في دينهم مزاجر، كنار الأبد في الآخرة وكالحدود والقود والقصاص في الدنيا[1] ».

«٨»

مسألة إنكار النصارى لكلام عيسى ـ عليه السلام ـ في المهد واتهامهم المسلمين بالكذب عليهم فيها.

هم ينفون أن يكون عيسى، عليه السلام، قد تكلم في المهد، ويزعمون أن القرآن[2] قد افتراه عليهم ورواه من غير الثقات .. ودليلهم على ذلك أن اليهود لا يعرفونه وكذلك المجوس، وكذلك الهند والخزر والديلم.

ويستهل الجاحظ رده عليهم قائلاً:

« إنكم حين سوّيتم المسألة وموهتموها ونظمتم ألفاظها، ظننتم أنكم قد نجحتم وبلغتم غايتكم، ولعمري لئن حسُن ظاهرها، وراع الأسماع مخرجها، إنها لقبيحة المفتّش، سيئة المغزى ».

ثم يرد عليهم قولهم إن اليهود لا تقر بذلك، بقوله:

« إن اليهود لا تقر لهم بشيء أصلا مما ينسبونه لعيسى عليه السلام[3]، مثل

---

(١) ص ٢٢.

(٢) قال تعالى: ﴿**فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا ..**﴾ الآيات ٢٩ ـ ٣٣ مريم وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿**اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل**﴾ ... الآيات.

(٣) في المعجزات التي ينسبها النصارى لعيسى أنظر لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي المتوفي سنة ٥٠٥ هـ كتاب (الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل (ص ١١١، ١٦٢ وما بعدها، بتحقيق د. محمد عبدالله الشرقاوي الطبعة الاولى. وأنظر: « حياة المسيح » لدنيس كلارك مكتبة الحياة بيروت ١٩٧٣ م، وكذا الأناجيل والرسائل.

إحياء الموتى، وإقامة المقعد، وإطعام الجمع الكثير من الأرغفة اليسيرة، وتصيير الماء جمداً، والمشي على الماء، فاليهود لا تنكر الكلام في المهد فحسب من بين جميع آياته وبراهينه حتى يحتج النصارى بإنكارهم».

«أمّا قول اليهود في عيسى فمعلوم مشهور، فهم يقولون عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنه صاحب رقى ونيرنجات، ومداوي مجانين، ومتطبب، وصاحب حيل ومريّض خُدَع، وقرّاءة كتب، وكان لسناً سُكَيْناً [١]، ومقتولاً مرجوماً، ولقد كان قبل ذلك صيّاد سمك، وصاحب شبك، وكذلك أصحابه، وإنه خرج على مواطأة منهم له، وإنه لم يكن له شدة ... ...، ... ...، وأحسنهم قولا، وألينهم مذهباً من زعم أنه ابن يوسف النجار (سفاحاً)» [٢].

ومن مفتريات اليهود على عيسى، عليه السلام، أنه واطأ ذلك المقْعَد قبل إقامته له بسنين ...، وأنه لم يحي ميتاً قط، وإنما داوى رجلاً يقال له «لاعازَرْ» كان قد أغمي عليه يوماً وليلة، وكانت أمه ضعيفة العقل قليلة المعرفة، فظنت أنه مات، فأقامه.

وفي تفنيده دعوى النصارى عدم معرفة المجوس والهند والخزر والترك بكلام عيسى في المهد يذكر أبو عثمان:

«ولو كانت المجوس تُقِر لعيسى بعلامة واحدة، وبأدنى أعجوبة، لكان لكم أن تنكروا علينا بهم، وتستعينوا بإنكارهم، فأما وحال عيسى ـ في جميع أمره ـ عند المجوس، كحال زَرَادشْت، في جميع أمره عند النصارى فما اعتلالهم بهم وتعلقهم في إنكارهم؟..

(١) السكين: الحمار الوحشي، والحمار الخفيف السريع (اللسان لابن منظور).

(٢) ص ٢٣ وقارن ما صرح به السؤال بن يحيى المغربي المتوفي ٥٧٠ هـ (وكان حبراً يهودياً فأسلم) عن تصور اليهود للمسيح ومزاعمهم فيه ومفترياتهم عليه، أنظر كتابه: (إفحام اليهود) بتحقيقنا، نشر الرئاسة العامة للبحوث العلمية بالرياض، ١٤٠٥ هـ.

وأمّا قولكم: فكيف لم تعرف الهندُ والخزرُ والترك ذلك؟ فمتى أقرّت الهند لموسى بأعجوبة واحدة فضلاً عن عيسى؟ ومتى أقرّت لنبي بآية أو روتْ له سيرة حتى تستشهدوا الهند على كلام عيسى في المهد؟؟..

ومتى كانت الترك والديلم والخزر والتتر والطيلسان مذكورةً في شيء من هذا الجنس، محتجاً بها على هذا الضرب..»؟

«٩»
انقطاع سند النصرانية وتناقض كتبها

من أهم المسائل التي عرض لها الجاحظ في رسالته الوجيزة هذه، الطعن في رواة أناجيل النصارى ورسائلهم وعدم اتصالهم بالمسيح، أي: انقطاع سند النصرانية، وأنه لا يثبت للنقد والتمحيص، كما أن متن الأناجيل مضطرب متكاذب، متناقض، متعاند، والجاحظ ــ بهذا ــ قد فتح باب الجدل الموضوعي المرتكز على أسس منهجية متينة من نقد السند والمتن معاً، وهو لا يتأتى إلا باستقراء النصوص ودراستها دراسة علمية مستوعبة مقارنة، ودراسة سندها كذلك، وهذا ــ ولا ريب ــ عمل علمي منهجي رائد. وقد قام علماء الجدل المسلمون ــ بعده ــ بتفصيله وتعميقه [١]، ثم أخذه عنهم بعض المنصفين من علماء اللاهوت

---

(١) أنظر لابن حزم الاندلسي، الفصل في «الملل والنحل»، الجزء الخاص باليهود والنصارى، وللقاضي عبد الجبار الأسد أبادي: «تثبيت دلائل النبوة» والجزء الخامس من موسوعته: «المغني». ولأبي المعالي الجويني رسالته: » شفاء الغليل في الرد على من بدل التوراة والانجيل»، وللخزرجي الاندلسي: «مقامع هامات الصلبان». وللقرطبي: «الاعلام بما في دين النصارى من الفساد والاوهام.....»، وكذلك جواب أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا»، وكتاب ابن تيمية: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» وكتاب القرافي الصنهاجي: «الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة» وكتاب رحمة الله الهندي: «اظهار الحق» وغير ذلك.

النصارى ومفسّري الأناجيل(١)، وأفاد منه ـ فائدة جلى ـ المهتدون إلى الإسلام من الذين كانوا يدينون بالنصرانية، وكتبوا رسائل وكتباً في المقارنة بين الديانتين وفي الجدل ضد أصحابهم السابقين(٢).

يقول الجاحظ:

«فإن سألونا عن أنفسهم فقالوا: ما لنا لا نعرف ذلك (أي كلام عيسى في المهد)، ولم يبلغنا عنه أحد البتة؟

فجوابنا: أنهم إنما قبلوا دينهم عن أربعة أنفس: اثنان منهم من الحواريين بزغمهم، يوحنا ومتى، واثنان من المستجيبة(٣) وهما: مارقش (مرقس) ولوقش (لوقا)، وهؤلاء الأربعة لا يؤمن عليهم الغلط، ولا النسيان، ولا تعمد الكذب، ولا التواطؤ على الأمور، والاصطلاح على اقتسام الرياسة، وتسليم كل واحد منهم لصاحبه حصته التي شرطها له.

فإن قالوا: إنهم كانوا أفضل من أن يتعمدوا كذباً، وأحفظ من أن ينسوا شيئاً، وأعلى من أن يغلطوا في دين الله تعالى، أو يضيّعوا عهداً..!!

قلنا: إن اختلاف رواياتهم في الإنجيل، وتضاد معاني كتبهم واختلافهم في

---

(١) مثل: جون مارش مفسر انجيل يوحنا، والدكتور فردريك كالفتن جرانت، أستاذ الدراسات اللاهوتية في الكتاب المقدس بمعهد اللاهوت الاتحادي بنيويورك، والدكتور أ. نينهام أستاذ اللاهوت بجامعة لندن (معهد اللاهوت) ورئيس تحرير سلسلة (بليكان) لتفسير الانجيل والدكتور موريس بوكاي الباحث في مقارنة الأديان، وكذلك دائرة المعارف البريطانية، ودائرة المعارف الامريكية، وللمزيد من التفاصيل في هذا أنظر دراستنا عن الانجيل بين تناقض المتن وانقطاع السند في مقدمة تحقيقنا لكتاب «الرد الجميل» لحجة الاسلام أبي حامد الغزالي، وفي العدد الثالث من مجلة مركز البحوث (جامعة الإمام).

(٢) مثل القس أنسيلموتورميدا الذي أصبح يعرف بعبد الله الترجمان ومثل الحسن بن أيوب، ونصر المتطيب، وزيادة النصب رأسي،.. وغير من ذكرنا.

(٣) أي ممن استجابوا لدعاة النصرانية بعد رفع المسيح عليه السلام.

نفس المسيح ، مع اختلاف شرائعهم دليل على صحة قولنا فيهم ، وغفلتكم عنهم .

وما ينكر من مثل لوقش (لوقا) أن يقول باطلاً وليس من الحواريين ، وقد كان يهودياً قبل ذلك بأيام يسيرة ... ، ... » [1] .

يركز الجاحظ ـ في هذا النص ـ فكرته عن سند الأناجيل بأن أصحابها الأربعة ليسوا من حواريي المسيح وإنْ زعَمَ النصارى أن اثنين منهم من الحواريين ، ومن ثم لا يؤمن عليهم غلط ولا نسيان ، ولا تواطؤ على كذب ، وإن دعوى النصارى أفضلية هؤلاء الأربعة ، وسموّ منزلتهم وترفعهم عن ذلك ، ينقضه ـ في رأي الجاحظ ـ تناقض رواياتهم ، وتعاند معاني كتبهم وتكاذبها ، واختلاف شرائعهم مع اختلافهم في المسيح نفسه ، وقد صدق كثير من الباحثين اللاهوتيين النصارى المعاصرين رأي الجاحظ الذاهب إلى أن كتّاب الأناجيل جميعاً ليسوا من الحواريين [2] .

« ١٠ »

نقض أبي عثمان تأسيس دعوى النصارى بُنُوَّة عيسى لله تعالى

وقف الجاحظ عند هذه المسألة وقفة متأنية ، عرض فيها كثيراً من التفاصيل الجزئية المتعلقة بالموضوع ، وبدأ بطرح السؤال الذي ورده عن أهل الكتاب :

« وسألتم عن قولهم :

إذا كان الله تعالى قد اتخذ عبداً من عباده خليلا ، فهل يجوز أن يتخذ عبداً

(١) ص ٢٤ .

(٢) أنظر بحثنا المشار إليه آنفا عن « سند الأناجيل ومتنها » .

من عباده ولداً ، يريد بذلك إظهار رحمته ومحبته إياه ، وحسن تربيته وتأديبه له ، ولطف منزلته منه ، كما سمى عبداً من عباده خليلاً ، وهو يريد تشريفه وتعظيمه والدلالة على خالص حاله عنده ؟؟ »

تلك هي دعوى أهل الكتاب (١) .

---

(١) معروف أن النصارى يزعمون أن عيسى ابن الله وأن هذه البنوة حقيقية وقليل منهم يرى أنها بنوة مجازية ، جاء فيما يسمى (الأمانة) وهي القرار الخطير الذي تمخض عنه مجمع نيقية المسكوني الاول الذي عقد في مدينة (نيقية) — (أزنيك بتركيا حاليا) ، تحت رعاية الامبراطور قسطنطين ، واجتمع فيه أكثر من ألفين من كبار علمائهم وشيوخهم — : « نؤمن بالله الواحد الآب ، مالك كل شيء صانع ما يرى وما لا يرى ، وبالرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد ، بكر الخلائق كلها ، الذي ولد من أبيه ، قبل العوالم كلها ، وليس بمصنوع ، اله حق من اله حق ، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم ، وخلق كل شيء ، الذي من أجلنا معشر الناس ، ومن أجل خلاصنا ، نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، وصار إنساناً وحمل به ، ثم ولد من مريم البتول ، وألم ، وشج ، وقتل ، وصلب ، ودفن ، وقام في اليوم الثالث ، وصعد الى السماء ، وجلس عن يمين أبيه ، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والاحياء ، ونؤمن بروح القدس الواحد ، ... الخ » .

« فهذا العقد الذي أجمع عليه الملكية والنسطورية واليعقوبية ، وهذه الأمانة التي ألفها أولئك البطاركة والأساقفة ، والعلماء ، وجعلوها شعار النصرانية ، ... وافترقوا عليها وعلى لعن ما خالفها ومن خالفها ، والتبري منه ، وتكفيره » .

أنظر رسالة الحسن بن أيوب المهتدي الى أخيه علي بن أيوب يشرح فيها سبب إسلامه ، وخروجه على النصرانية وهي مضمنة في كتاب : الجواب الصحيح لابن تيمية جـ٢ ، جـ٣ طبعة المدني بمصر .

وأنظر : اغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية جـ٢ ص٢٧٣ نشرة : محمد حامد الفقي بمصر .....

وأنظر عن هذا المجمع كتاب سعيد بن البطريق « أفتشيوس » : « التاريخ المجموع » نشرة سنة ١٩٠٥ م بيروت ص١٣٦ — ١٣٩ .

وعن المناقشات اللاهوتية النصرانية حول هذه المسألة أنظر كتاب : « مباحث دينية فلسفية » ، وهي جملة رسائل لعلماء نصارى ، جمعها ، وحققها ، ونشرها : القس بولس سباط سنة ١٩٢٩ م .

وأنظر كتاب المهتدي علي بن ربّن الطبري (معاصر الجاحظ) المسمى : « الدين والدولة في اثبات نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم » وهو من الكتب الجيدة في بابها ، وقد نشره عادل نويهض في دار الآفاق الجديدة في بيروت ١٩٧٣ م .

ومعروف أن القرآن الكريم ينفي «الوالديّه والولديّة» عن الله عز وجل، على الحقيقة والمجاز كليهما، قال تعالى:

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [1] ﴿مَا كَانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [2].

﴿وَقَالُوا: اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا للرحمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ [3].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ، ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ، قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [4].

ويذكر لنا الجاحظ أنه رأى من يجيز ذلك من المتكلمين المسلمين، ولا ينكره، إذا كان ذلك (أي الأبوة والبنوة) على التبني، والتربية، والإبانة له بلطف المنزلة، والاختصاص له بالمرحمة والمحبة، لا على جهة الولادة واتخاذ الصاحبة، ويقول (هذا المتكلم): ليس في القياس فرق بين اتخاذ الولد على التبني والتربية، وبين اتخاذ الخليل على الولاية والمحبة [5].

ويرى الجاحظ أن كلام أهل الكتاب بهذا، والنصوص التي يستشهدون بها ــ من التوراة والزبور والإنجيل ــ على ذلك، إنما هي مجرد دعوى منهم على التوراة والإنجيل والزبور، ويرفض الجاحظ أن تكون هذه النصوص من الكتب حقيقة [6]، ويقول:

---

(١) سورة الإخلاص الآية ٣.

(٢) سورة مريم الآية ٣٥.

(٣) سورة مريم الآيات ٨٨ ــ ٩٢.

(٤) سورة التوبة الآية ٣٠.

(٥) أنظر ص ٢٥.

(٦) للتعرف على هذه النصوص أنظر كتاب الغزالي: الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل.

« وكان (يقصد المتكلم) يجوّز دعوى أهل الكتاب على التوراة والإنجيل والزبور وكتب الأنبياء صلوات الله عليهم ، في قولهم :

— إنّ الله قال : إسرائيل بكري ، أي هو أول من تبنّيتُ من خلقي .
— وأنه قال : إسرائيل بكري ، وبنوه أولادي .
— وأنه قال لداود : سَيُولَدُ لَكَ غلام يسمى لي ابناً ، وأسمى له أباً .
— وأن المسيح قال في الإنجيل :
* أنا ذاهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم .
— وأنه أمر الحواريين أن يقولوا في صلواتهم :
يا أبانا الذي في السماء ، تقدّس اسمك » .

ويفسر الجاحظ هذه الأمور العجيبة والمذاهب الشنيعة بسوء عبارة اليهود ، وسوء تأويل أصحاب الكتب ، وجهلهم مجازات الكلام ، وتصاريف اللغات ، ونقل لغة إلى لغة ، وما يجوز على الله وما لا يجوز[1] .

ويسوق لنا رأي المتكلم إبراهيم بن سيار النّظام المتوفي سنة ٢٢٠ هـ ، وينص الجاحظ على أن كلام النظام هذا هو ما كانت عليه المعتزلة ، ويخالفهم الجاحظ فيه ، ولا يراه مقنعاً ولا شافياً ولا مقبولاً ، لأنه كان يجعل الخليل مثل الحبيب ومثل الولي ، وكان يقول خليل الرحمن مثل حبيبه ووليه وناصره ، وكانت الخلة والولاية والمحبة سواء ، وقالوا : ولما كانت كلها عنده سواء ، جاز أن يسمى عبداً له ولداً لمكان التربية التي ليست بحضانة ، ولمكان الرحمة التي لا تشتق من الرحم[2] .

---

(١) أنظر ص ٢٥ .

(٢) أنظر ص ٣٠ ، ومن الجدير ذكره أن كثيراً من مفكري المسلمين الذين تناولوا مسألة (بنوة عيسى) بالتحليل والنقض ، لم يذهبوا مذهب الجاحظ في رد نصوص أهل الكتاب — في هذا الأمر — جملة وتفصيلاً ، لكنهم رأوا أن نصوص أهل الكتاب مصروفة الى المجاز ، وهي ، من ثم ، لا تمنحهم مستنداً في دعواهم بنوة عيسى لله على الحقيقة . لكن لا تمنع من القول بأنها — أي البنوة — مجازية ، ورأى الجاحظ : أن البنوة غير جائزة : مجازاً أو حقيقة .

أما رأي الجاحظ نفسه، الذي ينص على أنه قد خالف فيه النظام والمعتزلة، فنسوقه بألفاظه كما ذكره:

« وأما نحن ــ رحمك الله ــ فإنا لا نجيز أن يكون لله ولد، لا من جهة الولادة، ولا من جهة التبني، ونرى أن تجويز ذلك جهل عظيم، وإثم كبير، لأنه لو جاز أن يكون (الله) أبا يعقوب، لجاز أن يكون جداً ليوسف !! ولو جاز أن يكون جداً وأباً، وكان ذلك لا يوجب نسباً، ولا يوهم مشاكلة في بعض الوجوه، ولا ينتقص من عظم، ولا يحط من بهاء، لجاز أيضاً أن يكون (الله) عماً وخالاً !!، لأنه إن جاز أن نسميه ــ من أجل الرحمة والمحبة والتأديب ــ أباً، جاز أن يسميه آخر ــ من جهة التعظيم والتفضيل والتسويد ــ أخاً، ولجاز أن يجد له صاحباً وصديقاً، وهذا ما لا يجوّزه إلا مَنْ لا يعرف عظمةَ الله، وصغر قدر الإنسان، ... ولم يحمد الله من جوّز عليه صفات البشر، ومناسبة الخلق، ومقاربة العباد »[1]!.

هذا مجمل رأي أبي عثمان، وهو مؤيد من القرآن الكريم في عدم تجويز البنوة، حقيقة أو مجازاً لله تعالى [2] وهو منسجم مع مذهبه الكلامي الذي يرى أن الله تعالى مخالف للحوادث مخالفة تامة كاملة مطلقة.. وأنّ ما يوهم ذلك من النصوص يؤوّله ويصرفه عن ظاهره.

ويدلل الجاحظ على صحة كلامه من وجوه، نذكر منها قوله:

« ... ووجه آخر تعرفون به صحة قولي، وصواب مذهبي، وذلك أن الله تبارك وتعالى، لو علم أنه قد كان فيما أنزل من كتبه على بني إسرائيل أن أباكم كان

---

(١) ص ٢٦.

(٢) يقول تعالى: ﴿ **وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا** ﴾ وفي هذا نفي للولد عن الله حقيقة ومجازا. ويقول سبحانه في سورة المؤمنون ــ آية ٩١: ﴿ **ما أتخذ الله من ولد وما كان معه من اله** ﴾.

بكري وابني ، وأنكم أبناء بكري ، لما كان يغضب عليهم إذ قالوا : « نحن أبناء الله » ، فكيف لا يكون ابن الله ابنه ، وهذا من تمام الإكرام وكمال المحبة ؟؟ ولا سيما إن كان قال في التوراة :

« بنو إسرائيل أبناء بكري ، وأنت تعلم أن العرب حين زعمت أن الملائكة بنات الله ، كيف استعظم الله تعالى ذلك وأكبره ، وغضب على أهله ، وإن كان يعلم أن العرب لم تجعل الملائكة بناته على الولادة واتخاذ الصاحبة ، فكيف يجوز ، مع ذلك ، أن يكون الله قد كان يخبر عباده ــ قبل ذلك ــ بأن يعقوب ابنه ، وأن سليمان ابنه ، وأن عُزيْراً ابنه ، وأن عيسى ابنه ، فالله تعالى أعظم من أن يكون له أبوّة من صفاته ، والإنسان أصغر من أن تكون بنوة الله تعالى من أنسابه » (١) .

« والقول بأن الله يكون أباً وجداً وأخاً وعماً ، للنصارى ألزم ، وإن كان للآخرين لازماً ، لأن النصارى تزعم أن الله هو المسيح ابن مريم ، وأن المسيح قال للحواريين يا إخوتي ... ، فلو كان للحواريين أولاد ، لجاز أن يكون الله عمهم ... فهم لا يمنعون من أن يكون الله تبارك وتعالى أباً وجداً وعماً » .

وفي الواقع إن الجديد الذي يرد به الجاحظ على من جوز من المتكلمين قول النصارى : (المسيح ابن الله) على سبيل المرحمة والعطف ، وليس الولادة والنسب ، قياساً على اتخاذ الله إبراهيم خليلاً ، هو :

« أن ابراهيم ، صلوات الله عليه ، وإن كان خليلاً ، فلم يكن بخُلّةٍ كانت بينه وبين الله ، لأن الخُلّة والإخاء والخلطة ، وأشباه ذلك ، منفية عن الله ، عز

---

(١) ويلفت الجاحظ الأذهان الى ضرورة التأدب مع الله تعالى بما يليق به عز اسمه ، فيقول « لولا أن الله قد حكى عن اليهود أنهم قالوا : إنّ عزيزا ابن الله ، ويد الله مغلولة ، وأن الله فقير ونحن أغنياء ، وحكى عن النصارى أنهم قالوا : ان الله ثالث ثلاثة ــ لكنت لأنْ آخِرَ من السماء أحب إليَّ من أن ألفظ بحرف مما يقولون ، ولكني لا أصل إلى إظهار جميع مخازيهم ، وما يسِرّون من فضائحهم الا بالإخبار عنهم ، والحكاية منهم » ص٢٨ ، ورحم الله أبا عثمان !

ذكره، فيما بينه وبين عباده، على أن الإخاء والصداقة داخلتان في الخلة ...، ويجوز أن يكون إبراهيم خليلاً بالخَلّةِ التي أدخلها الله على نفسه وماله، وبين هذا وبين أن يكون خليلاً بُخلّة بينه وبين ربه، فرق ظاهر، وبون واضح، ذلك أن إبراهيم، عليه السلام، اختل في الله تعالى اختلالا لم يختلله أحد قبله، ...، فصار لهذه الشدائد مختلا في الله وخليلاً في الله، والخليل والمختل سواء لغة العرب وفي قياسنا هذا لا يجوز: أن الله خليل لإبراهيم كما يقال إن إبراهيم خليل الله » [1].

وهذا قد اشتُق لإبراهيم، عليه السلام، من عمله وحاله وصفته، وقد قيل لموسى عليه السلام: « كليم الله » ولعيسى عليه السلام: « روح الله »، ولم يقل ذلك لإبراهيم ولا لمحمد صلوات الله عليهما، وإن كان محمد صلى الله عليه وسلم أرفع درجة منهم، ويرى الجاحظ أنه يجوز أن يكون في نبي خصلة شريفة ولا تكون تلك الخصلة بعينها في نبي أرفع درجة منه، ويكون في ذلك النبي خصال شريفة ليست في الآخر» [2].

وهذا — حسب علمي — كلام جديد طريف تفتقت عنه قريحة الجاحظ، ويظهر أن واحداً لم يسبقه إلى ذلك، أو لم يتنبه إليه أو لم يقل به، خاصةً وأنه قد خالف فيه رأي أستاذه النّظام، وهو ليس رأي جميع المعتزلة.

وعلى كل حال فإن كتب التفسير لا تؤيده [3] في رأيه هذا لأنها تكاد تجمع

(١) وكان ابراهيم، عليه السلام، حين صار في الله مختلا، أضافه الله الى نفسه، وأبانه بذلك عن سائر أوليائه، فسماه: « خليل الله » من بين الأنبياء، كما سمى الكعبة: « بيت الله » من بين جميع البيوت، وأهل مكة: « أهل الله ».. وهكذا كل شيء عظمه الله تعالى من خير أو شر وثواب وعقاب. وقارن كتابه « البيان والتبيين » جـ٣ ص٢٩٨ بتحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر بيروت، مع الحاشية رقم (١) في ذات الصفحة.

(٢) ص ٣٢.

(٣) أنظر في تفسير هذه الآية: تفسير الطبري، تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ومفاتيح الغيب للفخر الرازي، وتفسير القرطبي. فهم جميعاً لا يؤيدونه فيما ذهب إليه.

على أن إبراهيم إنما سمي خليل الله لشدة محبته لربه عز وجل لما قام له به من الطاعة التي يحبها ويرضاها، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خطبهم في آخر خطبة خطبها، قال: «أما بعد: أيها الناس، فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلا، ولكن صاحبكم خليل الله».

ومهما يكن من أمر، فإن كلام الجاحظ هذا، لا يخرج على أصول اللغة وقواعدها المعتبرة، وإن له في اللغة لمتسعاً، جاء في «لسان العرب» قوله:

- خل الشيء يخله خلا، فهو مخلول وخليل، أي: ثقبه ونفذه، وجاء فيه أيضاً: رجل مخل ومختل وخليل: معدم فقير محتاج.
- وحكى اللحياني: ما أخلك الله إلى هذا، أي: ما أحوجك إليه.
- وفي حديث ابن مسعود: تعلموا العلم، فإن أحدكم لا يدري متى يختل إليه، أي: متى يحتاج الناس إليه.
- والخليل: الصديق، ومن جعل الخليل مشتقاً من الخلة وهي الحاجة والفقر، أراد أنني أبرأ من الاعتماد والافتقار إلى أحد غير الله عز وجل.
- والخليل: الرفيق، والخليل: الفقير[1].

«١١»

تفنيد الجاحظ بعض مزاعم اليهود

ثم ينتقل الجاحظ إلى دحض دعوى اليهود: أن المسلمين يقولون على الله ما لا يعرفونه، ولا يجوز أن يدينوا به، وهو قولنا:

---

(١) أنظر: لسان العرب، مادة: خلل، المجلد الأول ص ٨٩٢، ٨٠٣، ٨٩٤، ٨٩٥، طبعة دار اللسان، بيروت، بترتيب يوسف خياط. وقارن للفيروز أبادي، «القاموس المحيط» ص ٣٦٩ — ٣٧٠ جـ٣ طبعة دار الفكر ببيروت.

إن اليهود قالت: «إن الله تعالى فقير ونحن أغنياء»، وأنها قالت: «إن يد الله مغلولة»، وأنها قالت: إن عزيراً ابن الله.

وهم مع اختلافهم، وكثرة عددهم ينكرون ذلك، ويأبونه أشد الإباء..

ويمهد لإجابته على هذا الافتراء اليهودي بقوله:

«إن اليهود ــ لعنهم الله ــ كانت تطعن على القرآن، وتلتمس نقضه، وتطلب عيبه، وتخطىء فيه صاحبه، وتأتيه من كل وجه، وترصده بكل حيله، لتلبس على الضعفاء، وتستميل الأغبياء..» (١).

ثم يذكر أن دين اليهودية ــ في الأصل ــ لا يدعي أن الله فقير وأن عباده أغنياء، لكن اليهود عندما سمعوا قول الله تعالى:

﴿مَنْ ذَا الذِّي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضَاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ (٢).

قالت على وجه الطعن والعيب والتخطئة والتعنت: تزعم أن الله يستقرض منا، وما استقرض منا إلا لفقره وغنانا، فكفرت بذلك القول.

ثم يتحدث عن مجاز الآية، وحسن بيانها بعبارته المتأنقة المشرقة.

ثم يناقش دعواهم بأن «يد الله مغلولة» ونفيهم عن أنفسهم هذا القول، فيذكر:

«أن القرآن الكريم لم يذكر إلى أن اليهود ترى بأن ساعده مشدودة إلى عنقه بغل، وكيف يذهب إلى هذا ذاهب؟.. ويدين به داين؟... فإنه منفي عن وهم

---

(١) ص ٣٤ من الرسالة..

(٢) سورة الحديد آية ١١.

كل بالغ يحتمل التكليف ، وعاقل يحتمل التثقيف ، ... فهم يعنون : بره وإحسانه . والذي يدل على أنهم أرادوا باليدين : النعمة والإفضال دون الساعد والذراع ... جواب كلامهم حين قال :

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاء ﴾ (١) .

أما إن قالوا : كيف لم يقل إن اليهود بخلت الله ، وجحدوا إحسانه دون أن يقال : إن يد الله مغلولة ؟

قلنا : وإنه سبحانه يريد التنفير عن قولهم وأن يبغضهم إلى من سمع ذلك عنهم ، ولو أراد الله تليين الأمر وتسهيله وتصغيره لقال قولاً غير هذا ، وكل صدق جائز في اللغة ، فهذا مجاز مسألتهم في اللغة ، وهو معروف عند أهل البيان والفصاحة .

ثم ينتقل أبو عثمان لمناقشة دعوى اليهود أنهم لا يقولون إن عزيراً ابن الله ، ويذكر أن اليهود « في ذلك على قولين :

أحدهما : خاص ، والآخر : عام في جماعتهم ..

. فأما الخاص فإن ناساً منهم لما رأوا عُزيراً أعاد عليهم التوراة من تلقاء نفسه بعد دروسها ، وشتات أمرها ، غَلَوْا فيه ، وقالوا ذلك ، وهو مشهور من أمرهم ، وإن فريقاً من بقاياهم باليمن والشام وبلاد الروم يقولون : إن إسرائيل الله ابنه ، وجاز ذلك لعزير بالطاعة والعلامة والمرتبة ...

والقول الذي هو عام فيهم : أن كل يهودي ولده إسرائيل فهو ابن الله ، إذ لم يجدوا ابن ابن قط إلا وهو ابن » (٢) ..

---

(١) سورة المائدة آية ٦٤ .

(٢) ص ٣٥ .

كأن الجاحظ هنا يذهب مذهب القائلين بأن « عُزيراً » المذكور في القرآن الكريم ، هو « عِزْراً » الوراق الناسخ الذي ترأس لجنة الكتبة الفريسيين ، والذي احتمل كبر تحريف التوراة وتبديلها وتزييفها واليهود في الأسر البابلي ، بعد غزوة « بَخْتْ نَصَّر » المعروفة لهم ، وتدمير هيكلهم ، وسبي وجوههم وأعيانهم .

ومما يذكر هنا أن عالماً ثقة هو « السموأل بن يحيى المغربي المتوفي سنة ٥٧٠ هـ » وقد كان حبراً يهودياً ، فشرح الله صدره للإسلام ــ يرى أن (عزيراً) يختلف عن (عزرا) وليس هو هو[١] .

وخلاصة رأي الجاحظ في اليهود أنهم قومٌ جبرية والجبرية تبخل الله مرة ، وتظلمه مرة ، ويسوق نماذج عديدة لما قالوه عن الله تعالى ، عمّا يقولون علوا كبيراً . وهم ــ عنده ــ قوم مشبهة ، فهم يقولون مثلاً عن الله سبحانه في توراتهم :

- إني أنا الله الثَّقِف ، وأنا النار التي تأكل النيران ، آخذ الأبناء بحوب الآباء ، القرن الأول والثاني والثالث إلى السابع ..
- وإن داود قال في الزبور : افتح عينيك يا رب ، وقم يا رب ، وأصغ إلى سمعك يا رب .
- وإن داود خبر أيضاً في مكان آخر عن الله تعالى فقال : وانتبه الله كما ينتبه السكران الذي قد شرب الخمر .
- وإن موسى قال في التوراة : خلق الله الأشياء بكلمته وبروح نفسه .
- وإن الله قال في التوراة لبني إسرائيل : بذراعي الشديد أخرجتكم من أهل مصر .

---

(١) أنظر كتابه : أفحام اليهود ، بتحقيق د. محمد عبد الله الشرقاوي ، وأنظر رسالة الأخ الدكتور عبد الرحمن عوف عن : « عزير وعزرا » رسالة ماجستير بكلية دار العلوم سنة ١٩٧٤م .

— وفي التوراة : احمدوا الله حمداً جديداً حمده ... إلى أن قال : ويجيء الرب كالجبار ، وكالرجل الشجاع ويزجر ، ويصرخ ، ويهيج الحرب والحمية ، ويقتل أعداءه ... إلخ ..

ويذكر الجاحظ أن هذا هو اللفظ العربي الذي ترجم اليهود أنفسهم كتبهم به ، « وكلهم على هذا اللفظ العربي مجمع ، ومعنى هذا لا يجوزه أحد من أهل العلم » ، ويختم كلامه عن اليهود بقوله : « وهم (اليهود) أهل الغباوة والغي وقلة النظر والتقليد » [١] .

« ١٢ »
مصادر ثقافة الجاحظ في « مقارنة الأديان »

تكشف لنا رسالة الجاحظ عن درايته العميقة بالعهد القديم أو التوراة ، كما تظهر معرفته الجيدة بالأناجيل ، سنداً ومحتوى ، مما يدفع الباحث إلى التساؤل عن المصادر العلمية التي استقى منها .

إنه يذكر أن مسألة دعوى النصارى إلهية عيسى ، قد شغلت المفكرين المسلمين قبله ... ولا شك أن ما جاء في القرآن الكريم من رفض دعوى النصارى ألوهية المسيح ، أو دعوى بنوته لله تعالى ، قد حرك علماء المسلمين ودفعهم إلى البحث في مصادر النصارى الأصلية ، أو فيما يسمى بالكتب القديمة ، حتى أن بعض الباحثين [٢] يزعم أن الحرص على فهم القرآن الكريم — في مثل هذه المسائل —

---

(١) ص ٢٩ .
(٢) أنظر : تاريخ التراث العربي ، المجلد الأول جـ ١ ص ٦٠ . (وأنظر مذاهب التفسير الاسلامي لجولدتسيهر) .

قد دفع صحابياً جليلاً هو عبدالله بن عباس، المتوفي سنة ٦٩ هـ، أو سنة ٧٠ هـ، وبعض تلاميذه، إلى سؤال النصارى واليهود والأخذ عنهم..

وإن بعض المقتبسات التي ترجع إلى عبدالله بن عباس تظهر — فيما يرى بعض الباحثين — أنه اعتمد على رجل مخضرم كان يزهو بأنه قرأ كتباً قديمة [1]، والكتب القديمة المعنية هنا هي كتب اليهود والنصارى، وقد ورد في مقتبسات ابن عباس اسمان ليهوديين أسلما، هما: كعب الأحبار وعبدالله بن سلام، وكان الأول حبراً يمنياً، وقد زعم المستشرق «لوت» بأنهما مدرسة ذات لون يهودي تنتسب إلى عبدالله بن عباس [2].

وهذا المخضرم الذي كان يسأله ابن عباس هو: «الجلد جيلان بن فروة» الذي كان يقول: قرأت في الحكمة، وقرأت في الكتب القديمة، وقرأت في مسألة داود [3].

وعن معرفة المسلمين بالكتب القديمة نجد أن أبا نعيم يذكر في حليته أن التابعي مالك بن دينار المتوفي سنة ١٣١ هـ كان يقول: قرأت في الزبور، ويقول: مكتوب في التوراة، ويسوق مقتبسات زبورية وتوراتية [4]، ويعتبر مالك بن دينار من مبكري العلماء المسلمين الذين عرفوا بقراءة الكتب القديمة.

---

(١) د. فؤاد سزكين: المصدر السابق ص ٦٥، وأنظر التصحيف لأبي أحمد العسكري ص ٤٠٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م، وتفسير الطبري جـ١ ص ٣٤٠، بتحقيق شاكر.

(٢) أنظر حاشية رقم (٧٥) ص ٦٥ من الجزء الأول في المجلد الأول من تاريخ التراث العربي.

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم جـ٦ ص ٥٥ — ٥٦، تفسير الطبري جـ١ ص ١١٧ — ١١٨، تاريخ الطبري جـ١ ص ٣١٢، طبقات ابن سعد جـ٧ ص ١٦١، التاريخ الكبير للبخاري ص ١ ص ٢، ص ٢٥١، لسان الميزان لابن حجر جـ٢ ص ١٤٤، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم جـ١ ص ٥٤٧.

(٤) أنظر الحلية، جـ٢ ص ٣٧٦، ٣٧٧.

ويذكر الدكتور سزكين أن أبا يعقوب التدمري اليهودي الذي تحول إلى الإسلام في القرن الثاني للهجرة كان قد استخدم كتاب « باروخ بن ناريا » كاتب النبي « أرمياء » [١] الإسرائيلي ، ويشير المسعودي المؤرخ المتوفي سنة ٣٤٥ هـ أنه قد أدرك هذا الكتاب [٢] .

وإن كثيراً من المستشرقين [٣] قد لفت الأذهان إلى أن محمداً بن إسحاق صاحب السيرة النبوية المتوفي سنة ١٥٠ هـ قد اقتبس — في سيرته — نصاً من إنجيل يوحنا ، من الإصحاح ١٥ / ٢٣ ، والإصحاح ١٦ / ١ ، مأخوذاً من الصياغة السريانية الفلسطينية ، وقد أشار إلى ذلك من بينهم « الفريد جيوم » و « شغالي » ودرسه « شاخت » في بحث مستقل ، ويزعم « الفريد جيوم » [٤] أن جد ابن إسحاق هذا كان نصرانياً وأسلم ومن هنا كانت درايته بكتب النصارى المقدسة بزعمهم ، ولكن ليس لدي الفريد جيوم ما يستند إليه علمياً .

والنص الذي جاء في سيرة ابن إسحاق هو :

« وقد كان فيما بلغني عمّا كان وضع عيسى ابن مريم ، فيما جاءه من الله في الإنجيل في صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما أثبت يُحَنِّس الحواري لهم حين نسخ لهم الإنجيل عن عهد عيسى ابن مريم عليه السلام ، في رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، أنه قال :

---

(١) تاريخ التراث العربي جـ ٢ ص ١٣ ، تاريخ الطبري جـ ١ ص ١١٨ ، طبقات ابن سعد جـ ١ ص ٧٥ ، معجم البلدان جـ ٢ ص ٨٦٢ .

(٢) مروج الذهب جـ ٤ ص ١١٨ .

(٣) أنظر : د. سزكين : المصدر السابق ص ٨٩ — ٩٠ ، وأنظر العدد رقم [1951 ، 16] الصفحات من ٤٨٩ — ٤٩٠ من المجلة التي تصدرها مدريد وغرناطة .

(٤) أنظر :

من أبغضني فقد أبغض الرب . ولولا أني صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلي ما كانت لهم خطيئة ولكن من الآن بطروا وظنوا أنهم يعزونني ، وأيضاً للرب ولكن لا بد من أن تتم الكلمة في الناموس : أنهم أبغضوني مجاناً ــ أي باطلاً ــ فلو قد جاء المُـنَحمَـنَا هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب وروح القسط ، هذا الذي من عند الرب خرج ، فهو شهيد علي وأنتم أيضاً ، لأنكم قديماً كنتم معي ، في هذا قلت لكم لكيما لا تَشُكُوا » (١) . والمُـنَحـمَنا بالسريانية : محمد ، وهو بالرومية البرقليطس ، صلى الله عليه وسلم (٢) .

وكما ذكر فإن معلومات من أسلم من اليهود مثل عبدالله بن سلام ، رحمه الله ت ٤٣ هـ ، وكعب الأحبار ت ٣٢ هـ أو ٣٤ هـ ، كانت تتخذ مصدراً للمعرفة باليهودية ، وأن كعباً كان من أقدم من قاموا بنشر المأثورات اليهودية عند المسلمين .

وأن وهباً بن منبه المتوفي سنة ١١٠ هـ أو ١١٤ هـ ، كان على معرفة وثيقة بمأثور أهل الكتاب ، وإليه ترجع معارفه حول خلق العالم وتاريخ الأنبياء وبني إسرائيل (٣) ، ونقل عنه ابن هشام في مقدمة كتابه : التيجان (٤) ، برواية عبد

---

(١) السيرة لمحمد بن إسحاق ، نشرة الدكتور فردريك فستنفيلد ، سنة ١٨٥٨م في جوتنجن ، ص ١٥٩ . وقارن هذا بنص من انجيل يوحنا ، الاصحاح السادس عشر الفقرتين ١٢ ، ١٣ من الترجمة البيروتية ، الطبعة الثامنة عام ١٩٣٦م باشراف جمعية التوراة الامريكية .

(٢) Andalus, 15, p. 291 وكلام الفريد جيوم يحتاج الى تعليق ، ليس هذا مقامه ، ونذكر القارىء الكريم برأي محمد بن اسحاق النديم صاحب (الفهرست) في محمد بن اسحاق صاحب السيرة فهو يقول في صفحة ١٣٦ عنه : أنه مطعون عليه ، غير مرضي الطريقة ، ويجرحه في أخلاقه وسلوكه وأمانته العلمية ... ويذكر أنه كان يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم في كتبه أهل العلم الأول .

(٣) أنظر : طبقات ابن سعد جـ٧ ص ٢ ، ص ٩٧ ، وأنظر دائرة المعارف الاسلامية جـ٤ ص ١١٧٤ ، مقال هورفتس .

(٤) ص ٢٠ وبحث هورفتس في دائرة المعارف الاسلامية ، ص ١١٧٤ .

المنعم بن إدريس ــ المتوفي سنة ٢٢٩ هـ ــ حفيد وهب ، وقد رأى ابن خلكان (١) كتاب وهب بن منبه المسمى : كتاب الملوك ، وامتدحه بأنه من الكتب المفيدة ، وكذلك رآه ياقوت الحموي (٢) .

ويجزم الدكتور سزكين بأنه يستطيع أن يثبت من هذه المقتبسات أن وهباً كان يرجع في عرضه لأصل التاريخ ــ بدايته ــ إلى الكتاب المقدس ، وأنه كان يسجل الأسماء والأرقام الواردة في نص الكتاب المقدس تسجيلاً دقيقاً ، وقد اعتمد عليه ابن إسحاق في عرضه لبدايات المسيحية في جنوب الجزيرة العربية (٣) .

واستفاد ابن سعد المتوفي سنة ٢٣٠ هـ ــ في كتابه عن اليهود والنصارى ــ من هشام بن محمد الكلبي المتوفي سنة ٢٠٤ هـ .

بعد هذه الإشارات المتفرقة التي تقدم تصوراً أولياً غير تام عن معرفة علماء المسلمين بالأصول القديمة نسأل :

« ١٣ »
متى ترجم الإنجيل إلى اللسان العربي ؟

ونجيب بأنه قد توفر كثير من المستشرقين على دراسة هذه المسألة ــ لأغراض استشراقية معروفة ــ وإن دراساتهم لا تخلو ــ في الواقع ــ من فائدة علمية ، ذلك

---

(١) الوفيات ص ٢٣٨ جـ ٢ .
(٢) ارشاد الأريب جـ ٧ ص ٢٣٢ .
(٣) تاريخ التراث العربي جـ ٢ المجلد الأول ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ولوهب كتاب (زبور داوود) قرأه ابن خير حسب اشارة صاحب الفهرست .

أن كلجور (١) « Kilgour » يرى أن أول ترجمة للإنجيل إلى العربية قد كانت في القرن الثامن الميلادي وبعد عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ويتفق (نولدكه) مع (دي خويه) على أنه لم توجد ترجمة بالعربية للإنجيل لا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا في عهد الخلفاء الراشدين (٢).

يؤيد ذلك ما رُوي من أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد استنسخ كتاباً من أهل الكتاب، فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فغضب غضباً شديداً حتى احمرت وجنتاه، ولذلك ضرب عمر الرجل الذي قام بنسخ كتاب « دانيال » وطلب منه أن يمحوه بالحميم والصوف الابيض، ثم لا يقرؤه ولا يقرئه أحداً من الناس (٣).

وروى عمرو بن ميمون الأودي، قال: كنا جلوساً بالكوفة، فجاء رجل ومعه كتاب، فقلنا: ما هذا الكتاب؟ قال: كتاب دانيال. فلولا أن الناس تحاجزونا عنه لقتل، وقالوا: أكتابٌ سوى القرآن (٤)؟ وهذا يدل على أن وجدان المجتمع المسلم لم يكن ليطيق مثل ذلك، فضلاً عن أن يسمح به، ولم يكن المجتمع ــ حينذاك ــ أقل تحفظاً من عمر بن الخطاب نفسه في قبول مثل هذه الكتب أو قراءتها وإذاعتها.

---

(١) Kilgour : the Gospels in many years pp. i - ii London 1929
(نقلا عن دراسات في السنة للأعظمي جـ ١ ص ٤٦، جـ ٢ ص ٧١٨).

(٢) M. de Goeje, Quotations from the Bible in the Qoran and tradition pp. 179 - 185, Berlin 1897
(نقلا عن الدكتور الأعظمي جـ ١ ص ٤٦).

(٣) أنظر للحافظ الخطيب البغدادي: تقييد العلم، تحقيق يوسف العش، جـ ٤ ص ٦ ــ ٧ ــ دمشق ١٩٤٩ م، وأنظر تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٥٦ ــ ٥٧ دار الأندلس.

(٤) تقييد العلم ص ٥٦ ــ ٥٧.

أما من يقولون بأن الإنجيل قد ترجم إلى العربية قبل ذلك، فقولهم مردود، لأنهم يرون أن «يوحنا الأول» الذي أصبح البابا سنة ٦٣١ م ومات سنة ٦٤٨ م (١٠ ــ ٢٨ هـ) تقريباً هو الذي قام بترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية من أجل الأمير عمرو بن سعد بن الأشدق الذي توفي سنة ٧٠ هـ (٦٩٠ م)، ولأن والد عمرو هذا قد ولد سنة ٣ هجرية (٦٢٤ م) وعلى أحسن الفروض يكون عمرو هذا قد ولد سنة ٦٤٠ م، ولا يصح في العقل أن يترجم البابا الإنجيل لطفل صغير لا يتجاوز عمره سبع سنين، ومن ناحية أخرى فإن هذه الفترة هي عينها الفترة التي كان فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه خليفة المسلمين [١]، ويكاد يكون من المستحيل أن يصنع مثل هذا في عهده، لا من يوحنا الأول، ولا من غيره..

وليس معنى ما تقدم أن العرب قاطبة لم يكن فيهم من يعرف الإنجيل، فقد جاء في بعض الروايات الصحيحة أن ورقة بن نوفل مثلاً كان يكتب الإنجيل باللغة العبرانية [٢] وفي رواية أخرى أنه كان يكتبه بالعربية [٣]، ولا يفهم من ذلك أن الإنجيل كان معروفاً متداولاً على نطاق واسع، لأن ورقة بن نوفل لم يعرف عنه أنه كان مبشراً به، وربما كان تقييده لاستعماله الشخصي، وهو يكاد يكون متفرداً بمثل هذا العمل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل أليكم» [٤].

---

(١) د. مصطفى الأعظمي، دراسات في الحديث النبوي ص ٤٥ طبعة الرياض.

(٢) صحيح البخاري، بدء الوحي ١ طبعة لايدن وباريس.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الايمان، ٢٥٢. بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ١٣٧٤ هـ.

(٤) فتح الباري للحافظ بن حجر جـ١٣، بتصحيح الشيخ ابن باز، نشر الرئاسة العامة للبحوث العلمية بالرياض، ص ٣٣٣ ــ ٣٣٤.

وقال ابن عباس، رضي الله عنهما: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، تقرأونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله، وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، لا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم» [(١)].

وأخرج سفيان الثوري: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لم يهدوكم وقد ضلوا، أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل».. وهذا النهي - فيما يرويه ابن بطال عن المهلب - كما أورده ابن حجر في فتح الباري - إنما هو سؤالهم عما لا نص فيه، لأن شرعنا مكتف بنفسه، فإذا لم يوجد فيه نص، ففي النظر والاستدلال غني عن سؤالهم، ولا يدخل في النهي سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا، أو الأخبار عن الأمم السابقة، وأما قوله تعالى: ﴿**فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك**﴾ [(٢)] فالمراد به من آمن منهم، والنهي إنما هو عن سؤال من لم يؤمن منهم، ويحتمل أن يكون الأمر إنما يختص بما يتعلق بالتوحيد والرسالة المحمدية وما أشبه ذلك، والنهي عما سوى ذلك [(٣)]، وحديث أبي هريرة: «كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام» المقصود بهم: اليهود والنصارى [(٤)].

---

(١) المصدر السابق، نفس الموضع.

(٢) سورة يونس آية ٩٤.

(٣) فتح الباري، جـ١٣ ص٣٣٣، ٥١٦.

(٤) نفس المصدر والموضع.

« ١٤ »

خلاصة هذه المسألة

(أ) إن الكتاب المقدس بعهديه: القديم والجديد كان يقرأه أصحابه قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بالعبرانية ويفسرونه ــ للعرب ــ بالعربية، وهذا يعني أن بعض معاني هذا الكتاب كانت معروفة بين بعض العرب والمسلمين من مشافهتهم لأهل الكتاب.

(ب) إن بعض العرب كان يعرف العبرانية وكان يقرأ بها هذه الكتب ويترجم نصوصها إلى العربية. وهؤلاء من الندرة بمكان، ولا نعرف من بينهم سوى ورقة بن نوفل.

(جـ) نقل بعض من شرح الله صدرهم للإسلام من اليهود والنصارى بعض معارف الكتاب المقدس إلى المسلمين حسب الضرورة ومقتضى الحال.

(د) تجمع الدراسات على أن الكتاب المقدس (بزعم أصحابه) لم ينقل إلى اللسان العربي لا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا في عهد الخلفاء الراشدين، رضوان الله عليهم، وإنما نقل بعد ذلك.

(هـ) روى بعض التابعين مثل مالك بن دينار، وكتَّاب السيرة والطبقات المتقدمين مثل محمد بن إسحاق، نصوصاً دقيقة من التوراة والأناجيل، مما يؤكد أن هذه النصوص قد أخذت أخذاً مباشراً من نسخة مترجمة إلى العربية، ومعنى ذلك أن هذه الكتب قد أصبحت منذ ذلك الحين معروفة ــ في ترجمتها العربية ــ متداولة بين العلماء، بُعيد القرن الأول الهجري.

(و) ولعل أقدم إشارة ــ وصلتنا ــ لمترجم هي إشارة أحمد بن عبدالله بن سلام، مولى هارون الرشيد ــ والتي أوردها صاحب الفهرست، بقوله: ترجمتُ صدر هذا الكتاب والصحفَ والتوراةَ الإنجيلَ وكتبَ الأنبياء والتلامذة من اللغة

العبرانية واليونانية والصابية ــ وهي لغة أهل كل كتاب ــ إلى اللغة العربية.. ثم يشرح خطته ومنهجه الذي سار عليه في ترجماته هذه [1].

«١٢»
خاتمة

تعتبر هذه الرسالة من أوائل الرسائل والكتب التي وصلتنا في هذا الموضوع، موضوع الجدل الديني ضد أهل الكتاب، جمع فيها الجاحظ إلى جانب القدرة الفنية الأدبية، القدرةَ الجدليةَ الكلامية. ويلاحظ أنه مع تمسكه بالمقاييس والطرق الكلامية في المعالجة والتقويم إلا أنه لم يكن موافقاً لمتكلمي المعتزلة موافقة تامة، بل خالفهم في بعض النقاط الأساسية، وفنّد مذهبَهم وعرّض بإبراهيم بن سيار النظام المعتزلي، لكنه لم يتجاوز المنهج الكلامي السائد آنذاك فنجده يلجأ إلى التأويل والقول بالمجاز اللفظي كحل لبعض المشكلات التي تعرض له، كما نجده يستخدم المصطلحات الكلامية المعروفة، ونستطيع القول بأنه قد عالج في إيجاز شديد مسألة السند في أناجيل النصارى وأشار إلى انقطاعه ودلّل على ذلك، ثم تحدث عن مضمون هذه الكتب، وكشف عن بعض ما فيها من تناقض وتدابر، وأظهر معرفة جيدة بكتب اليهود والنصارى في ترجمتها العربية، وقد أخذ على أهل الكتاب سوء الترجمة والحرفية في فقه النص الأصلي، وعدم إدراك المجازات اللغوية، ويلاحظ أن الرسالة على وجازتها لم تخل من الاستطراد الجاحظي المعروف.

---

(١) ابن النديم: الفهرست، ص ٣٢، ٣٣ طبعة دار المعارف، بيروت. وخلافة الرشيد ما بين ١٧٠ هـ ــ ١٩٣ هـ على ما ذكره المسعودي في «التنبيه والإشراف» ص٢٩٨ ــ ٢٩٩ نشرة دار صعب بيروت.

وأخيراً فإن لهذه الرسالة صدى عميقاً فيما كتب بعدها في حقل الجدل الديني ضد اليهود والنصارى [1]، كما أن لها قيمة وثائقية كبيرة لأنها من أقدم الآثار العلمية ــ إن لم تكن أقدمها ــ التي وصلتنا في هذا الحقل العلمي الخطير.

ونذكر ــ في هذا الصدد ــ أن الجاحظ من كبار رجالات المعتزلة؛ بل رأس الفرقة الجاحظية المعروفة، وأنّ إسرافهم في تأويل صفات الله تعالى وأسمائه لا يقرُّهم عليه أهلُ السنة والجماعة الذين يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه، دون تأويل، ولا تشبيه أو تمثيل، ولا تكييف أو تعطيل.

هذا، والله من وراء القصد.

---

(١) لقد أشار اليها مثلا القاضي عبد الجبار في كتاب (المغني)، الجزء الخامس أكثر من مرة، بتحقيق محمود الخضيري ص١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١٣. كما أن الغزالي قد أشار إلى بعض الأفكار التي وردت بها في مقدمة «الرد الجميل»، وكذلك قد أفاد من أفكاره كل من:

ــ المهتدي: نصر بن يحيى بن سعيد المتطبب في: «النصيحة الإيمانية»،

ــ والقرافي في: الأجوبة الفاخرة، ــ وابن تيمية في: «الجواب الصحيح».

ــ وقد استفاد منه بلا ريب ابن حزم في: الفصل في الملل والأهواء والنحل ونقل عنه في أكثر من موضع، وقد تنبه إلى ذلك ــ أي إلى استفادة ابن حزم من رسالة الجاحظ هذه ــ الدكتور محمود حماية في دراسته عن ابن حزم ومنهجه في مقارنة الأديان، طبعة دار المعارف بالقاهرة.



القسم الثاني

نص رسالة :

« المختار في الرد على النصارى »

للجاحظ : أبي عثمان عمرو بن بحر

المتوفي سنة ٢٥٥ هـ

حررها وقيّد حواشيها

الدكتور محمد عبدالله الشرقاوي



مقدمة المؤلف*

الحمد لله الذي من علينا بتوحيده، وجعلنا ممن ينفي شبهةَ خلقه (١)، وسياسةَ عباده (٢)، وجعلنا لا نفرق بين أحد من رسله، ولا نجحد كتاباً أوجب علينا الإقرار به، ولا نُضيفُ إليه ما ليس منه، إنه حميدٌ مجيد، فعَّال لِما يريد.

أما بعد: فقد قرأت كتابكم، وفهمت ما ذكرتم فيه من مسائل النصارى قبلكم، وما دخل على قلوب أحداثكم وضعفائكم من اللبس، والذي خفتموه على جواباتهم من العجز، وما سألتم من إقرارهم بالمسائل، ومن حسن معونتهم بالجواب.

وذكرتم أنهم قالوا: إن الدليل على أن كتابنا باطل، وأمرنا فاسد، أننا ندّعي عليهم ما لا يعرفونه فيما بينهم، ولا يعرفونه من أسلافهم، لأنا نزعم أن الله جل وعز قال في كتابه على لسان نبيه محمد صلى الله عله وسلم:

﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ (٣).

(*) هذا العنوان من وضعنا.

(١) أي إن الله تعالى خالق غير مخلوق، وهذا حسن ابتداء لأن النصارى الذين يجادلهم ــ في هذه الرسالة: يرى بعضهم أن الههم ــ عيسى عليه السلام ــ مخلوق، أو فيه شبهة خلق.

(٢) هذا رأي الجاحظ والمعتزلة الرامي الى أن الله تعالى لا يخلق أفعال عباده، ولا يجبرهم عليها.

(٣) سورة المائدة آية ١١٦.

وأنهم زعموا أنهم لم يدينوا قط بأن مريم إله في سرهم ولا ادعوا ذلك قط في علانيتهم [١] .

وأنهم زعموا أنا ادَّعينا عليهم ما لا يعرفون ، كما ادعينا على اليهود ما لا يعرفون حين نطق كتابنا ، وشهد نبينا أن اليهود قالوا: إن ﴿ **عزيراً ابن الله** ﴾ [٢] ، ﴿ **وإن يد الله مغلولة** ﴾ [٣] ، ﴿ **وإن الله فقير ونحنُ أغنياء** ﴾ [٤] .

وهذا ما لا يتكلم به إنسان ، ولا يعرف في شيء من الأديان ، ولو كانوا يقولون في عزير ما نحلتموه ، وادَّعيتموه ، لما جحدوه من دينهم ، ولما أنكروا أن يكون من قولهم ، ولما كانوا بإنكار بنوة عزير أحق منا بإنكار بنوة المسيح ، ولما كان علينا منكم بأس بعد عقد الذمة ، وأخذ الجزية .

وذكرتم أنهم قالوا : مما يدل على غلطكم في الأخبار ، وأخذكم العلم عن غير الثقات ، أن كتابكم ينطق : أن فرعون قال لهامان : ﴿ **ابن لي صرحاً** ﴾ [٥] ، وهامان لم يكن إلا في زمن الفرس ، وبعد زمن فرعون بدهر طويل وأن ذلك معروف عند أصحاب الكتب مشهور عند أهل العلم ، وإنما اتخذ صرحاً ليكون إذا علاه أشرف على الله .

وفرعون لا يخلو من أن يكون جاحداً لله تعالى أو مقراً به ، فإن كان دينه

---

(١) في نشرة فنكل (عزير) بالرفع .

(٢) قال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله** ﴾ سورة التوبة آية ٣٠ .

(٣) قال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾ سورة المائدة آية ٦٣ .

(٤) قال تعالى : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ سورة آل عمران آية ١٨٠ .

(٥) قال تعالى : ﴿ **قال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلّي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع الى اله موسى واني لأظنه كاذباً** ﴾ (سورة غافر آية ٣٥ ـ ٣٦) .

ــ عند نفسه وأهل مملكته ــ نبي الله وجحده، فما وجه اتخاذ الصرح، وطلب الإشراف، وليس هناك شيء ولا إله؟..

ــ وإن كان مقراً بالله عارفاً به، فلا يخلو من أن يكون مشبهاً أو نافياً للتشبيه، فإن كان ممن ينفي الطول والعرض والعمق والحدود والجهات، فما وجه طلبه له في مكان بعينه، وهو عنده بكل مكان؟

ــ وإن كان مشبهاً، فقد علم أنه ليس في طاقة بني آدم أن يبنو بنياناً، ويرفعوا صرحاً يخرق سبع سماوات بأعماقهن والأجزاء التي بينهن حتى يحاذي العرش، ثم يعلوه..

ــ وفرعون وإن كان كافراً، فلم يكن مجنوناً، ولا كان إلى نقص العقل[1] ــ من بين الملوك ــ منسوباً.

على أن الحكم قد يقوم بعقول الملوك بالفضيلة على عقول الرعية.

وذكرتم أنهم قالوا: تزعمون أن الله تعالى ذكر يحيى بن زكريا بخبر أتاه لم يجعل له من قبل سمياً[2]، وأنهم يجدون في كتبهم، وفيما لا يختلف فيه خاصتهم وعامتهم أنه كان من قبل يحيى بن زكريا غير واحد يقال له يحيى منهم يوحنا بن فرح[3].

---

(١) العقل المقصود هنا هو الذي يقابل الجنون، لكن فرعون وأمثاله من أصحاب النار لم يكن لهم عقل مستضيء مسترشد بنور الهداية الربانية، وسيقرون بهذا وهم يصلون عذاب الجحيم ــ أجارنا الله منه ــ: ﴿**وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير**﴾ سورة الملك آية ٩.

(٢) جاء في قوله تعالى: ﴿**يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا**﴾ سورة مريم آية ٦.

(٣) لعله: يوحنان بن فاريح المشار اليه في سفر أرميا ٤٠/٨، ٤١/١١، ٤٣/٦.

وزعمتم أنهم قالوا لكم: إنكم ذكرتم أن الله قال في كتابه لنبيكم:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[١].

وإنما عنى بقوله: «أهل الذكر»: أهل التوراة، وأصحاب الكتب يقولون: إن الله قد بعث من النساء نبيات منهن مريم بنت عمران[٢]، وبعث منهن حنة[٣] وسارة[٤]، ورفقى[٥]..

وذكرتم أنهم قالوا: زعمتم أن عيسى تكلم في المهد[٦] ونحن على تقديمنا له وتقريبنا لأمره وإفراطنا بزعمكم فيه ـ على كثرة عددنا، وتفاوت بلادنا، واختلافنا فيما بيننا ـ لا نعرف ذلك ولا ندعيه.

وكيف ندعيه ولم نسمعه عن سلف ولا ادعاه منا مُدَّعٍ؟

ثم هذه اليهود لا تعرف ذلك وتزعم أنها لم تسمع به إلا منكم، ولا تعرفه المجوس، ولا الصابئون، ولا عباد البددة[٧] من الهند وغيرهم، ولا الترك، والخزر[٨]، ولا بلغنا ذلك عن أحد من الأمم السابقة والقرون الماضية، ولا في

---

(١) سورة النحل آية ٤٣.

(٢) أنظر الطبري جـ١ ص٥٨٦، وأنظر مجلة المعهد العالي للدعوة الاسلامية بالرياض العدد الخامس، ص٧٧ وما بعدها، (بحث للأستاذ محمد بن حماد الصقلي).

(٣) راجع انجيل لوقا ٢/٣٦.

(٤) راجع سفر التكوين ١١/٩، ٣٠/١٢: ٥، ١١، ١٧.

(٥) راجع سفر التكوين ٢٤: ١٥، ٢٩/٢٥: ٢٠.

(٦) قال تعالى: ﴿**فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركاً أينما كنت...**﴾. سورة مريم الآيات ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠.

(٧) البددة: جمع بد وهو الصنم.

(٨) هم: البلغار أو الروس.

الإنجيل، ولا في ذكر صفات المسيح في الكتب والبشارات به على ألسنة الرسل، ومثل هذا لا يجوز أن يجهله الولي والعدو وغير الولي وغير العدو، ولا يضرب به مثل، ولا يروح به الناس، ثم يجمع النصارى على رده مع حبهم لتقوية أمره، ولم يكونوا ليضادوكم فيما يرجع عليهم نفعه.

وكيف لم يكذبوكم في إحيائه الموتى، ومشيه على الماء، وإبراء الأكمه [(١)] والأبرص؟ بل لم يكونوا ليتفقوا على إظهار خلاف دينهم وإنكار أعظم حجة كانت لصاحبهم.. ومثل هذا لا ينكتم ولا ينفك ممن يخالف وينمّ.

والكلام في المهد أعجب من كل عجب، وأغرب من كل غريب، وأبدع من كل بديع، لأن إحياء الموتى، والمشي على الماء وإقامة المقعد، وإبراء الأعمى، وإبراء الأكمه، قد أتت به الأنبياء، وعرفه الرسل، ودار في أسماعهم، ولم يتكلم صبي قط، ولا مولود في المهد، وكيف ضاعت هذه الآية وسقطت حجة هذه العلامة من بين كل علامة؟

وبعد، فكل أعجوبة يأتي بها الرجال، والمعروفون بالبيان، والمنسوبون إلى صواب الرأي، تكون الحيلة ــ في الظن ــ إليها أقرب، وخوف الخدعة عليها أغلب.

والصبي المولود عاجز في الفطرة، ممتنع من كل حيلة، وهذا لا يحتاج فيه إلى نظر، ولا يشبهه من شاهده بدخل [(٢)].

---

(١) الأكمه: الذي ولد أعمى من بطن أمه، اللسان.

(٢) في نشرة فنكل: (ولا ليشبهه من شاهده بدخل) وهو كلام غير مفهوم.

فصل منه

وسنقول في جميع[1] ما ورد علينا من مسائلكم وفيما لا يقع إليكم من مسائلهم ، بالشواهد الظاهرة ، والحجج القوية ، والأدلة الاضطرارية .

ثم نسألهم بعد جوابنا إياهم عن وجوه يعرفون بها انتقاض قولهم ، وانتشار مذهبهم ، وتهافت دينهم .

ونحن نعوذ بالله من التكلف وانتحال ما لا نحسن ، ونسأله القصد في القول والعمل ، وأن يكون ذلك لوجهه ، ولنصرة دينه ، إنه قريب مجيب ، (وبعد) :[2] فأنا مبتدىء في ذكر الأسباب التي لها صارت النصارى أحب إلى العوام من المجوس ، وأسلم صدوراً — عندهم — من اليهود ، وأقرب مودة ، وأقل غائلة ، وأصغر كفراً ، وأهون عذاباً ولذلك أسباب كثيرة ، ووجوه واضحة ، يعرفها من نظر ويجهلها من لم ينظر .

أول ذلك : أن اليهود كانوا جيران المسلمين بيثرب وغيرها ، وعداوة الجيران شبيهة بعداوة الأقارب في شدة التمكن وثبات الحقد ، وإنما يعادي الإنسان من يعرف ، ويميل على من يرى ، ويناقض من يشاكل ، ويبدو له عيوب من يخالط ، وعلى قدر الحب والقرب يكون البغض ولذلك كانت حروب الجيران وبني الأعمام من سائر الناس وسائر العرب أطول ، وعداوتهم أشد .

فلما صار المهاجرون لليهود جيراناً ، وقد كانت الأنصار مقدمة الجوار ، مشاركة

---

(١) لكنه — في الواقع — لم يناقش جميع ما ورد عليه من مسائلهم التي ذكرها ، ولا ندري ان كان قد ناقشها فعلاً لكن لم تصل مناقشته الينا ، لأن الرجل الذي اختار رسائل الجاحظ ، ويسمى : عبيد الله بن حسان ، وهو غير معروف ، قد اختار بعض ردوده وأهمل بعضها ، أو أن الجاحظ اكتفى بهذه المناقشات ورأى أن فيها كفاية عن غيرها لأنها تتناول أمهات المسائل المطلوبة .

(٢) هذه الكلمة من وضعنا ليستقيم بها السياق .

في الدار، حسدتهم اليهود على نعمة الدين، والاجتماع بعد الافتراق، والتواصل بعد التقاطع، وشبهوا على العوام، واستمالوا الضعفة، ومالأوا الأعداء والحسدة، ثم جاوزوا الطعن، وإدخال الشبهة إلى المناجزة والمنابذة بالعداوة، فجمعوا كيدهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في قتالهم وإخراجهم من ديارهم، وطال ذلك، واستفاض فيهم، وظهر، وترادف لذلك الغيظ، وتضاعف البغض، وتمكن الحقد. وكانت النصارى ــ لبعد ديارهم عن مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ومهاجره ــ لا يتكلفون طعناً، ولا يثيرون كيداً، ولا يجمعون على حرب [١].

فكان هذا أول أسباب ما غلظ القلوب على اليهود، ولينها على النصارى. ثم كان من أمر المهاجرين إلى الحبشة واعتمادهم على تلك الجهة ما حببهم إلى عوام المسلمين، وكلما لانت القلوب لقوم غلظت على أعدائهم، وبقدر ما نقص من بغض النصارى زاد في بغض اليهود، ومن شأن الناس حب من اصطنع إليهم خيراً أو جرى على يديه، أراد الله بذلك أو لم يرده، وبقصد كان أم باتفاق.

وأمر آخر ــ وهو من أمتن أسبابهم، وأقوى أمورهم ــ وهو تأويل آية غلطت فيها العامة حتى نازعت الخاصة، وحفظتها النصارى، واحتجت بها واستمالت قلوب الرعاع والسفلة وهو قول الله تعالى:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ والَّذِينَ أَشْرَكُوا، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً للذينَ آمَنُوا الذينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارى﴾ إلى قوله **﴿وَذَلِكَ جَزاءُ المُحسِنِين﴾**[٢].

وفي نفس الآية أعظم الدليل على أن الله تعالى لم يعن هؤلاء النصارى [٣] ولا

---

(١) كان ذلك في بداية البعثة النبوية وبعد الهجرة، لكن الأمر تغير فيما بعد، على ما هو معروف.

(٢) سورة المائدة آيات ٨٢ ــ ٨٥.

(٣) يشير الى طائفة النسطورية من النصارى.

أشباههم الملكانية واليعقوبية[١]، وإنما عنى ضرب بحيرا[٢] أو ضرب الرهبان الذين كان يخدمهم سلمان[٣]، وبين حمل قوله (الذين قالوا أنا نصارى) على الغلط منهم في الأسماء، وبين أن نجزم عليهم لأنهم نصارى فرق.

كما ذكر اليهود أنه جاء الإسلام وملوك العرب رجلان: غساني ولخمي، وهما نصرانيان. وقد كانت العرب تدين لهما وتؤدي الإتاوة إليهما، فكان تعظيم قلوبهم لهما راجعاً إلى تعظيم دينهما. وكانت تهامة ـ وإن كانت لقاحاً لا تدين لدين ولا تؤدي الإتاوة ولا تدين للملوك ـ فإنها كانت لا تمتنع من تعظيم ما عظم الناس وتصغير ما صغروا. ونصرانية النعمان وملوك غسان مشهورة في العرب ومعروفة عند أهل النسب، ولولا ذلك لدللت عليها بالأشعار المعروفة والأخبار الصحيحة.

وقد كانت تتجر إلى الشام، وتنفذ رجالها إلى ملوك الروم، ولها رحلة في الشتاء والصيف في تجارة: مرة إلى اليمن ومرة قبل الشام. ومصيفها بالطائف. فكانوا أصحاب نعمة، وذلك مشهور مذكور في القرآن[٤] وعند أهل المعرفة. وقد كانت تهاجر إلى الحبشة وتأتي باب النجاشي[٥] وافدة فيحبوهم بالجزيل ويعرف لهم الأقدار، ولم تكن تعرف كسرى[٦] ولا تأنس بهم.

---

(١) هذه طوائف النصارى الكبرى: الاولى تنتشر في بلاد العراق، وتنتشر الثانية ـ الملكانية ـ في بلاد الروم، أما الثالثة فتنتشر في مصر والحبشة.

وأنظر في تاريخ هذه الفرق للشهرستاني: الملل والنحل جـ ٢ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٥، نشرة كيلاني.

(٢) هو الراهب النصراني الذي لقي رسول الله بالشام ـ قبل البعثة ـ في ركب قريش، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم صغير السن آنذاك، فعرف بحيرا أنه هو النبي المنتظر، والقصة مشهورة في كتب السيرة.

(٣) قصة الصحابي الجليل سلمان الفارسي معروفة، راجعها في كتاب الاصابة لابن حجر العسقلاني ص ٣٣٥٠ طبعة سنة ١٣٢٣ هـ بمصر، وكذلك في سيرة ابن هشام ص٣٨ نص صريح في هذه المسألة قد تنبه اليه الاستاذ عبد السلام هارون.

(٤) في سورة قريش.

(٥) ملك الحبشة.

(٦) ملك الفرس.

وقيصر[1] والنجاشي نصرانيان، فكان ذلك أيضاً للنصارى دون اليهود. والآخر من الناس تبع للأول في تعظيم من عظم، وتصغير من صغر[2].

وأخرى وهي أن العرب كانت النصرانية فيها فاشية، وعليها غالبة، إلا مضر، فلم تغلب عليها يهودية، ولا مجوسية، ولم تفش فيها النصرانية إلا ما كان من قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون العباد فإنهم كانوا نصارى، وهم مغمورون مع نبذ يسير في بعض القبائل، ولم تعرف مضر إلا دين العرب، ثم الإسلام.

وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها: على لخم وغسان والحارث بن كعب بنجران وقضاعة وطيِّىء في قبائل كثيرة، وأحياء معروفة. ثم ظهرت في ربيعة، فغلبت على تغلب، وعبد القيس، وأفناء بكر، ثم في آل ذي الجدين خاصة. وجاء الإسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة إلا ما كان من ناس من اليمانية وَنبْذ يسير من جميع إياد وربيعة. ومعظم اليهودية [3] إنما كان بيثرب، وحمير، وتَيْماء، ووادي القرى، في ولد هارون، دون العرب، فعطف قلوب دهماء العرب على النصارى الملكُ الذي كان فيهم، والقرابةُ التي كانت لهم.

ثم رأت عوامنا أن فيها مُلْكاً قائماً، وأن فيهم عرباً كثيرة، وأن بنات الروم ولدن لملوك الإسلام، وأن في النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين، فصاروا بذلك عندهم عقلاء، وفلاسفة حكماء، ولم يروا ذلك في اليهود.

---

(١) ملك الروم.

(٢) في الأغلب الأعم وليس على الاطلاق.

(٣) قارن كتاب السموأل بن يحيى المغربي: «افحام اليهود» وكتاب جورج فايدا: «مقدمة للفكر اليهودي في العصر الوسيط» ترجمة الدكتور علي سامي النشار وعباس أحمد الشربيني، نشر منشأة المعارف بالاسكندرية ص ٣٩ وما بعدها.

قارن كتاب: «التأثيرات الاسلامية على العبادة اليهودية» لفندر ترجمة د. محمد سالم الجرح، طبعة القاهرة ١٩٦٨.

وأنظر للأستاذ إبراهيم موسى هنداوي: «الأثر العربي في الفكر اليهودي» ص ١٣٨ — ص ١٦٥ طبع الأنجلو بمصر ١٩٦٥ م.

وإنما اختلفت أحوال اليهود والنصارى في ذلك ، لأن اليهود ترى أن النظر في الفلسفة كفر ، والكلام في الدين بدعة ، وأنه مجلبة لكل شبهة ، وأنه لا علم إلا ما كان في التوراة وكتب الأنبياء ، وأن الإيمان بالطب وتصديق المنجمين من أسباب الزندقة والخروج إلى الدهرية ، والخلاف على الأسلاف وأهل القدوة ، حتى إنهم ليبهرجون¹¹¹ المشهور بذلك ويحرِّمون كلام سالك سبيل أولئك .

ولو علمت العوام أن النصارى والروم ليست لهم حكمة ولا بيان ، ولا بُعْد رَوِيّة ، إلا حكمَة الكف ّ من الخرط والنجر والتصوير وحياكة البزْيَون (١) لأخرجتهم من حدود الأدباء ، ولمحتهم من ديوان الفَلاسفة والحكماء ، لأن كتاب المنطق والكون والفساد ، وكتاب العلوي وغير ذلك لأرسطاطاليس وليس برومي ولا نصراني . وكتاب المجسطي لبطليموس وليس برومي ولا نصراني ، وكتاب إقليدس لإقليدس وليس برومي ولا نصراني ، وكتاب الطب لجالينوس ولم يكن رومياً ولا نصرانياً ، وكذلك كتب ديمقراط ، وبقراط ، وأفلاطون (٣) ، وفلان وفلان ، وهؤلاء أناس من أمة قد بادوا وبقيت آثار عقولهم ، وهم اليونانيون ، ودينهم غير دينهم وأدبهم غير أدبهم ، أولئك علماء وهؤلاء صناع ، أخذوا كتبهم لقرب الجوار وتداني الدار ، فمنها ما أضافوه إلى أنفسهم ، ومنها ما حولوه إلى ملتهم ، إلا ما كان من مشهور كتبهم ومعروف حكمهم ، فإنهم حين لم يقدروا على تغيير أسمائها زعموا أن اليونانيين قبيلٌ من قبائل الروم ، ففخروا بأديانهم على اليهود ،

---

(١) البهرج : الرديء ، السيِّىء . وبهرج دمه : أي : أبطله . [اللسان] .

(٢) السندس .

(٣) أنظر في ترجمتهم : طبقات الأمم للقاضي صاعد الاندلسي المتوفي سنة ٤٦٢ ، طبع في مطبعة السعادة بمصر بدون تاريخ ص ٣٦ وما بعدها .

وأنظر للشهرستاني : الملل والنحل ، بتحقيق محمد سيد كيلاني طبع الحلبي جـ٢ ص ٦١ ــ ١٣٧ ، وأنظر لابن أبي أصيبعة : طبقات الاطباء نشرة نزار رضا ، بيروت .

واستطالوا بها على العرب، وبذخوا بها على الهند، حتى زعموا أن حكماءنا أتباع حكمائهم وأن فلاسفتنا احتذوا على مثالهم. فهذا هذا.

ودينهم ـ يرحمك الله ـ يضاهي الزندقة، ويناسب في بعض وجوهه قول الدهرية، وهم من أسباب كل حيرة وشبهة. والدليل على ذلك أنا لم نر أهل ملة قط أكثر زندقة من النصارى، ولا أكثر مُتحيراً أو مترنحاً منهم وكذلك شأن كل من نظر في الأمور الغامضة بالعقول الضعيفة ألا ترى أن أكثر من قُتل في الزندقة ـ ممن كان ينتحل الإسلام ويظهره ـ هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى؟ على أنك لو عددت اليوم أهل الظنة، ومواضع التهمة، لم تجد أكثرهم إلا كذلك، ومما عظمهم في قلوب العوام وحببهم إلى الطغام أن منهم كُتاب السلاطين، وفراشي الملوك، وأطباء الأشراف، والعطارين، والصيارفة، ولا تجد اليهودي إلا صباغاً أو دباغاً، أو حجاماً أو قصاباً أو شعاباً.

فلما رأت العوام اليهود والنصارى كذلك توهمت أن دين اليهود في الأديان كصناعتهم في الصناعات، وأن كفرهم أقذر الكفر إذ كانوا هم أقذر الأمم. وإنما صارت النصارى أقل مساخة (١) من اليهود ـ على شدة مساخة النصارى ـ لأن الإسرائيلي لا يزوج إلا الإسرائيلي، وكل مناكحهم (٢) مردودة فيهم، ومقصورة عليهم. ولما كانت الغرائب لا تشوبهم، وفحولة الأجناس لا تضرب وتضرب فيهم، لم ينجبوا (٣) في عقل ولا أسر ولا مِلْح (٤). وإنك لتعرف ذلك في الخيل والإبل والحمير والحمام.

---

(١) من مسخ مساخة، والمساخة في الطعام الذي لا طعم له ولا ملح فيه، أنظر: لسان العرب لابن منظور مادة (مسخ).

(٢) في نشرة فنكل: مساختهم.

(٣) وهذا معروف عند علماء الوراثة والاجنة، ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد نصح به وقال: اغتربوا لا تضووا.

(٤) الاسر، من قولك: شد الله أسره، أي: قوّى أحكام خلقه. والملح، الرضاع واللبن.

ونحن ـــ رحمك الله تعالى ـــ لم نخالف العوام في كثرة أموال النصارى، وأن فيهم ملكاً قائماً، وأن ثيابهم [١] أنظف، وأن صناعتهم أحسن، وإنما خالفنا في فرق ما بين الكفرين والفرقتين في شدة المعاندة، واللجاجة، والإرصاد لأهل الإسلام بكل مكيدة، مع لؤم الأصول وخبث الأعراق. فأما الملك والصناعة والهيئة فقد علمنا أنهم اتخذوا البراذين الشهرية، والخيل العتاق، واتخذوا الجوقات، وضربوا بالصوالجة، وتحدقوا المديني، ولبسوا الملحم والمطبقة، واتخذوا الشاكرية [٢] وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي، واكتنوا بذلك أجمع، ولم يبق إلا أن يتسموا بمحمد ويكتنوا بأبي القاسم، فرغب إليهم المسلمون. وترك كثير منهم عقد الزنانير، وعقدها آخرون دون ثيابهم، وامتنع كثير من كبرائهم من إعطاء الجزية وأنفوا ـــ مع اقتدارهم ـــ من دفعها، وسبوا من سبهم وضربوا من ضربهم، وما لهم لا يفعلون ذلك.. وأكثر منه.

وقضاتنا أو عامتهم يرون أن دم الجاثليق والمطران والأسقف وفاء بدم جعفر وعلي والعباس وحمزة، ويرون أن النصراني إذا قذف أم النبي صلى الله عليه وسلم بالغواية، أنه ليس عليه إلا التعزير والتأديب، ثم يحتجون أنهم إنما قالوا ذلك، لأن أم النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن مسلمة.

فسبحان الله العظيم. ما أعجب هذا القول. وأبين انتشاره. ومن حكم النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يساوونا في المجلس، ومن قوله: «وإن سبوكم فاضربوهم وإن ضربوكم فاقتلوهم [٣]» وهم إذا قذفوا أم النبي صلى الله عليه وسلم بالفاحشة لم يكن لهم عند أمته إلا التعزير والتأديب..

---

(١) في نشرة فنكل: ماءهم.

(٢) أي: الخدم.

(٣) لم أعثر عليه فيما تيسّر لي من دواوين السنة المطهرة.

وزعموا أن افتراءهم على النبي صلى الله عليه وسلم بنكث للعهد ولا بنقض للعقد.. وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطونا الضريبة عن يد منا عالية في قبولنا منهم وعقدنا لذمتهم دون إراقة دمهم. وقد حكم الله تعالى عليهم بالذلة والمسكنة. أو ما ينبغي للجاهل أن يعلم أن الأئمة الراشدين، والسلف المتقدمين لم يشترطوا عند أخذ الجزية، وعقد الذمة، عدم الافتراء على النبي صلى الله عليه وسلم وأمهاته إلا لأن ذلك عندهم أعظم في العيون وأجل في الصدور من أن يحتاجوا إلى تخليده في الكتب، وإلى إظهار ذكره بالشروط، وتثبيته بالبينات بل لو فعلوا ذلك لكان فيه الوهن عليهم، والمطمعة فيهم، ولظنوا أنهم في القدر الذي يحتاج فيه إلى هذا وشبهه. وإنما يتواثق الناس في شروطهم، ويفسرون في عهودهم ما يمكن فيه الشبهة أو يقع فيه الغلط، أو يغبى عنه الحاكم، وينساه الشاهد، ويتعلق به الخصم، فأما الواضح الجليل والظاهر الذي لا يخيل فما وجه اشتراطه والتشاغل بذكره؟

وأما ما احتاجوا إلى ذكره في الشروط، وكان مما يجوز أن يظهر في العهد وقد فعلوه، وهو كالذلة والصغارة، وإعطاء الجزية، ومقاسمة الكنائس، وأن لا يعينوا بعض المسلمين على بعض، وأشباه ذلك. فأما أن يقولوا لمن هو أذل من الذليل، وأقل من القليل — وهو الطالب الراغب في أخذ فديته والإنعام عليه بقبض جزيته وحقن دمه: نعاهدك على أن لا تفتري على أم رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، وسيد الأولين والآخرين، فهذا ما لا يجوز في تدبير أوساط الناس، فكيف بالجلة والعلية وأئمة الخليقة ومصابيح الدجى، ومنار الهدى، مع أنفة العرب، وبأو[1] السلطان، وغلبة الدولة، وعز الإسلام، وظهور الحجة والوعد بالنصرة.

على أن هذه الأمة لم تبتل باليهود ولا المجوس ولا الصابئين كما ابتليت

(١) البأو: العظمة، لسان العرب مادة «بأو».

بالنصارى[1]، وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا، والضعيف بالإسناد من روايتنا، والمتشابه من آي كتابنا، ثم يخلون بضعفائنا ويسألون عنها عوامنا، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين، وحتى مع ذلك ربما (تجرأوا)[2] على علمائنا وأهل الأقدار منا، ويشغبون على القوي، ويلبسون على الضعيف.

ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم، وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد.

وبعد فلولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم، ما صار إلى أغبيائنا، وظرفائنا، ومجّاننا، وأحداثنا شيء من كتب المثالية[3]، والديصانية[4]، والمرقونية[5] والفلانية[6]، ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى وسنة نبيه ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها، ومخلاة في أيدي ورثتها. فكل سخنة[7] عين رأيناها في أحداثنا وأغبيائنا فمن قبلهم كان أولها. وأنت إذا سمعت كلامهم في العفو والصفح، وذكرهم للسياحة، وزرايتهم على كل من أكل اللحمان، ورغبتهم في أكل الحبوب، وترك الحيوان، وتزهيدهم في النكاح، وتركهم لطلب الولد، ومديحهم للجاثليق والمطران والأسقف والرهبان بترك النكاح وطلب النسل،

---

(١) بل ابتليت الأمة بجميع هؤلاء.

(٢) في نشرة فنكل: تبرأوا، ولعل ما أثبتناه هو الصواب.

(٣) وهم فرقة غالية تقول بحلول الالوهية في علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه، ويجوز أن يكونوا المنانية: أتباع ماني.

(٤) يرون أن النور هو مصدر الخير والشر قصداً واختياراً وأن الظلام هو مصدر الشر طبعاً واضطراراً.

(٥) يدينون بالنور والظلام مصدرين للخير والشر، وهناك ثالث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٦) ربما كان: العليانية وهم الذين يفضلون عليا رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم.
أنظر في هذه الفرق: الملل والنحل للشهرستاني جـ١ ص ٢٤٤ — ٢٥٣ نشرة سيد كيلاني، طبع الحلبي بمصر.

(٧) سخنة العين: في مقابل، قرة العين. (اللسان).

وتعظيمهم الرؤساء، علمت أن بين دينهم وبين الزندقة نسباً، وأنهم يحنون إلى ذلك المذهب.

والعجب أن كل جاثليق لا ينكح، ولا يطلب الولد، وكذلك كل مطران وكل أسقف، وكذلك كل أصحاب الصوامع من اليعقوبية والمقيمين في الديورات [1] والبيوت من النسطورية، وكل راهب في الأرض وراهبة — مع كثرة الرهبان والرواهب، ومع تشبه أكثر القسيسين بهم في ذلك ومع ما فيهم من كثرة الغزاة، وما يكون فيهم مما يكون في الناس من المرأة العاقر، والرجل العقيم، على أن من تزوج منهم امرأة لم يقدر على الاستبدال بها، ولا على أن يتزوج أخرى معها، ولا على التسري عليها — وهم مع هذا قد طبقوا الأرض وملأوا الآفاق وغلبوا الأمم بالعدد وبكثرة الولد. وذلك مما زاد في مصائبنا وعظمت به محنتنا. ومما زاد فيهم وأنمى عددهم أنهم يأخذون من سائر الأمم ولا يعطونهم، لأن كل دين جاء بعد دين أخذ منه الكثير وأعطاه القليل.

فصلٌ مِنه

ومما يدل على قلة رحمتهم، وفساد قلوبهم أنهم أصحاب الخصاء من بين جميع الأمم، والخصاء أشد المثلة، وأعظم ما ركبه إنسان. ثم يفعلون ذلك بأطفال لا ذنب لهم ولا دفع عندهم. ولا نعرف قوماً يعرفون بخصاء الناس حيث ما كانوا إلا ببلاد الروم والحبشة، وهم في غيرهما قليل وأقل قليل. على أنهم لم يتعلموا إلا منهم، ولا كان السبب في ذلك غيرهم ثم خصوا أبناءهم وأسلموهم في بيعهم. وليس الخصاء إلا في دين الصابئين، فإن العابد ربما خصى نفسه ولا يستحل خصاء ابنه، فلو تمت إرادتهم في أولادهم في ترك النكاح، وطلب النسل كما حكيت لك قبل هذا، لانقطع النسل، وذهب الدين، وفتن الخلق..

---

(١) جمع (دير) وهو غير قياسي، ويقال فيه: ديارات، وهو غير قياسي كذلك.

والنصراني، وإن كان أنظف ثوباً وأحسن صناعة، وأقل مساخة فإن باطنه ألأم وأقذر وأسمج، لأنه أقلف [1] ولا يغتسل من الجنابة، ويأكل لحم الخنزير، وامرأته جنب لا تطهر من الحيض، ولا من النفاس، ويغشاها في الطمث وهي مع ذلك غير مختونة. وهم مع شرار طبائعهم، وغلبة شهواتهم ليس في دينهم مزاجر: كنار الأبد في الآخرة وكالحدود والقود والقصاص في الدنيا، فكيف يجانب ما يفسده ويؤثر ما يصلحه من كانت حاله كذلك. وهل يصلح الدنيا من هو كما قلنا، وهل يهيج على الفساد إلا من وصفنا ؟؟.

ولو جهدت بكل جهدك، وجمعت كل عقلك أن تفهم قولهم في المسيح، لما قدرت عليه حتى تعرف به حد النصرانية وخاصة قولهم في الإلهية [2].

وكيف تقدر على ذلك، وأنت لو خلوت ونصراني نسطوري فسألته عن قولهم في المسيح لقال قولاً، ثم إن خلوت بأخيه لأمه وأبيه وهو نسطوري مثله فسألته عن قولهم في المسيح لأتاك بخلاف قول أخيه وضده. وكذلك جميع الملكانية واليعقوبية. ولذلك صرنا لا نعقل حقيقة النصرانية كما نعرف جميع الأديان.

على أنهم يزعمون أن الدين لا يخرج في القياس ولا يقوم على المسائل ولا يثبت في الامتحان، وإنما هو بالتسليم لما في الكتب والتقليد للأسلاف. [3] ..

ولعمري أن من كان دينه ليجب عليه أن يعتذر بمثل عذرهم.. وزعموا أن

---

(١) أي غير مختون.

(٢) أنظر في هذه المسألة كتاب الغزالي: الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الانجيل، (مقدمة المؤلف)، طبعة دار أمية بالرياض.

(٣) أنظر رأي السموأل بن يحيى المغربي المتوفي سنة ٥٧٠ هـ في هذه المسألة المهمة في كتابه «أفحام اليهود» ومما يجدر ذكره: أن السموأل كان حبراً يهودياً، فشرح الله صدره للإسلام، ورفض تقليد الاباء والأسلاف والمشايخ.

كل من اعتقد خلاف النصرانية من المجوس والصابئين والزنادقة فهو معذور، ما لم يتعمد الباطل ويعاند الحق.. فإذا صاروا إلى اليهود قضوا عليهم بالمعاندة، وأخرجوهم من طريق الغلط والشبهة.

فَصل مِنه

فأما مسألتهم في كلام عيسى في المهد، فهي أن النصارى ــ مع حبهم لتقوية أمره ــ لا يثبتونه، وقولهم:

إنا تقولناه ورويناه من غير الثقات، وأن الدليل على أن عيسى لم يتكلم في المهد: أن اليهود لا يعرفونه، وكذلك المجوس وكذلك الهند والخزر والديلم، فنقول ــ في جواب مسألتهم عند إنكارهم كلام المسيح في المهد مولوداً ــ يقال لهم:

إنكم حين سويتم المسألة، وموهتموها، ونظمتم ألفاظها ظننتم أنكم قد نجحتم، وبلغتم غايتكم، ولعمري لئن حسن ظاهرها، وراع الأسماع مخرجها إنها لقبيحة المفتش، سيئة المعرى.. ولعمري لو كانت اليهود تقر لكم بإحياء الأربعة الذين تزعمون، وإقامة المقعد الذي تدعون، وإطعام الجمع الكثير من الأرغفة اليسيرة، وتصيير الماء جمداً، والمشي على الماء، ثم أنكرت الكلام في المهد من بين جميع آياته وبراهينه، لكان لكم في ذلك مقال، وإلى الطعن سبيل. فأما وهم يجحدون ذلك أجمع: فرة يضحكون، ومرة يغتاظون ويقولون: إنه صاحب رقى ونيرنجات[١]، ومداوي مجانين ومتطبب، وصاحب حيل، ومروض خدع، وقراءة كتب، وكان لسناً سكيناً[٢]، ومقتولاً مرجوماً، ولقد كان قبل ذلك صياد سمك، وصاحب شبك، وكذلك أصحابه، وإنه خرج على مواطأة منهم له، وأنه لم يكن له شدة..

---

(١) أي حيل سيميائية تستهدف تحويل المعادن الخسيسة الى أخرى ثمينة، أي طبائع العصر والمواد.

(٢) أي حمارا وحشيا، أو كالحمار الوحشي في خفة حركته ونشاطه الجم.

وأحسنهم قولا وألينهم مذهباً من زعم أنه ابن يوسف النجار، وأنه قد كان واطأ ذلك المقعد قبل إقامته بسنين حتى إذا شهره بالقعدة، وعرف موضعه في الزمنى، مر به في جمع من الناس كأنه لا يريده، فشكا إليه الزمانة وقلة الحيلة وشده الحاجة، فقال: ناولني يدك فناوله يده، فاجتذبه، فأقامه، فكان تجمع لطول القعود، حتى استمر بعد ذلك. وأنه لم يحي ميتاً قط، وإنما كان داوى رجلاً يقال له (لاعازر)[1] إذ أغمي عليه يوماً وليلة، وكانت أمه ضعيفة العقل قليلة المعرفة، فمر بها فإذا هي تصرخ وتبكي، فدخل إليها ليسكتها ويعزيها، وجس عرقه، فرأى فيه علامة الحياة، فداواه حتى أقامه فكانت لقلة معرفتها لا تشك أنه قد مات، ولفرحها بحياته تثني عليه بذلك، وتتحدث به[2].. فكيف تستشهدون قوماً هذا قولهم في صاحبكم حين قالوا: كيف يجوز أن يتكلم صبي في المهد مولوداً فيجهله الأولياء والأعداء ؟؟.

ولو كانت المجوس تقر لعيسى بعلامة واحدة وبأدنى أعجوبة لكان لكم أن تنكروا علينا بهم، وتستعينوا بإنكارهم.

فأما وحال عيسى في جميع أمره ــ عند المجوس ــ كحال زرادشت في جميع أمره ــ عند النصارى ــ فما اعتلالهم بهم، وتعلقهم في إنكارهم ؟.

وأما قولكم: فكيف لم تعرف الهند والخزر والترك ذلك ؟

فتى أقرت الهند لموسى بأعجوبة واحدة فضلاً عن عيسى ؟

ومتى أقرت لنبي بآية، أو روت له سيرة حتى تستشهدوا الهند على كلام عيسى في المهد ؟

---

(١) قارن انجيل يوحنا (١١ : ٤٣).

(٢) راجع انجيل يوحنا (٢١ : ٥)، ففيه خبر هذه الواقعة، وتفاصيل أخرى حولها.

ومتى كانت الترك والديلم والخزر والتتر والطيلسان مذكورة في شيء من هذا الجنس محتجاً بها على هذا الضرب .

فإن سألونا عن أنفسهم فقالوا : ما لنا لا نعرف ذلك ؟ ولم يبلغنا عن أحد بتة ؟

أجبناهم بعد إسقاط نكيرهم وتشنيعهم وتزوير شهودهم .

فجوابنا : أنهم إنما قبلوا دينهم عن أربعة أنفس اثنان منهم من الحواريين بزعمهم [١] : يوحنا ومتى ، واثنان من المستجيبة [٢] وهما : مارقش [٣] ولوقش [٤] . وهؤلاء الأربعة لا يؤمن عليهم الغلط ، ولا النسيان ، ولا تعمد الكذب ، ولا التواطؤ على الأمور ، والاصطلاح على اقتسام الرياسة ، وتسليم كل واحد منهم لصاحبه حصته التي شرطها له .

فإن قالوا : إنهم كانوا أفضل من أن يتعمدوا كذباً ، وأحفظ من أن ينسوا شيئاً ، وأعلى من أن يغلطوا في دين الله تعالى أو يضيعوا عهداً ..

قلنا : إن اختلاف رواياتهم في الإنجيل ، وتضاد معاني كتبهم ، واختلافهم في نفس المسيح ، مع اختلاف شرائعهم دليل على صحة قولنا فيهم ، وغفلتكم عنهم .

وما ينكر من مثل (لوقش) أن يقول باطلاً ، وليس من الحواريين ، وقد كان يهودياً قبل ذلك بأيام يسيرة . ومن هو عندكم من الحواريين خير [٥] من لوقش عند المسيح في ظاهر الحكم بالطهارة ، والطباع الشريفة ، وبراءة الساحة .

---

(١) يرفض الجاحظ دعوى النصارى أن يوحنا ومتى من الحواريين .

(٢) لعله يقصد اللذين استجابا للدعوة النصرانية فيما بعد المسيح عليه السلام.

(٣) مرقس

(٤) لوقا

(٥) من الأوفق للسياق أن تكون الخيرية هنا منفية ، أي يقال : (ليس خيراً) ، وربما كان في الكلام سقط .

فَصْلٌ مِنه

وسألتم عن قولهم :

إذا كان تعالى قد اتخذ عبداً من عباده خليلاً ، فهل يجوز أن يتخذ عبداً من عباده ولداً ، يريد بذلك إظهار رحمته له ، ومحبته إياه ، وحسن تربيته وتأديبه له ولطف منزلته منه [١] ، كما سمي عبداً من عباده خليلاً وهو يريد تشريفه وتعظيمه والدلالة على خاص حاله عنده ؟ وقد رأيت من المتكلمين [٢] من يجيز ذلك ، ولا ينكره إذا كان ذلك على التبني ، والتربية ، والإبانة له بلطف المنزلة والاختصاص له بالمرحمة والمحبة ، لا على جهة الولادة ، واتخاذ الصاحبة ، ويقول :

ليس في القياس فرق بين اتخاذ الولد على التبني والتربية وبين اتخاذ الخليل على الولاية والمحبة ، وزعم أن الله تعالى يحكم في الأسماء بما أحب ، كما أن له أن يحكم في المعاني بما أحب ، وكان يجوز دعوى أهل الكتاب على التوراة والإنجيل والزبور وكتب الأنبياء صلوات الله عليهم في قولهم .

إن الله قال : إسرائيل بكري ، أي هو أول من تبنيت من خلقي . وأنه قال : إسرائيل بكري وبنوه أولادي [٣] . وأنه قال لداود :

« سيولد لك غلام يسمى لي ابناً وأسمى له أباً » [٤] . وأن المسيح قال في الإنجيل :

---

(١) يعني : أبوة مجازية .

(٢) أي من المتكلمين الاسلاميين ، المعتزلة خصوصاً .

(٣) أنظر : سفر الخروج (٢٢ : ٢٣) من الاصحاح الرابع ، وراجع في ذلك كذلك : رسالة بولس الى أهل رومية ٩ : ٤ ، سفر يوشع أو هوشع ١١ : ١ .

(٤) أنظر صموئيل الثاني ٧ : ١٢ — ١٤ .

« أنا أذهب إلى أبي وأبيكم ، وإلهي وإلهكم »(١) . وأن المسيح أمر الحواريين أن يقولوا في صلواتهم :

« ا أبانا (الذي)(٢) في السماء تقدس اسمك »(٣) .

في أمور عجيبة ومذاهب شنيعة ، تدل على سوء عبارة اليهود ، وسوء تأويل أصحاب الكتب ، وجهلهم مجازات الكلام وتصاريف اللغات ، ونقل لغة إلى لغة ، وما يجوز على الله وما لا يجوز ، وسبب هذا التأويل كله الغي والتقليد واعتقاد التشبيه(٤) .

وكان يقول : إنما وضعت الأسماء على أقدار المصلحة ، وعلى قدر ما يقابل من طبائع الأمم ، فربما كان أصلح الأمور وآمنها أن يتبناه الله أو يتخذه خليلاً ، أو يخاطبه بلا ترجمان ، أو يخلقه من غير ذكر ، أو يخرجه من بين عاقر وعقيم ، وربما كانت المصلحة غير ذلك كله ، وكما تعبدنا أن نسميه جواداً ، ونهانا أن نسميه سخياً أو سرياً ، وأمرنا أن نسميه مؤمناً ونهانا أن نسميه مسلماً ، وأمرنا أن نسميه رحيماً ونهانا أن نسميه رفيقاً وقياس هذا كله واحد ، وإنما يتسع ويسهل على قدر العادة وكثرتها ، ولعل ذلك كله قد كان شائعاً في دين هود وصالح وشعيب وإسماعيل إذ كان شائعاً في كلام العرب في إثبات ذلك وإنكاره .

وأما نحن ــ رحمك الله ــ فإنا لا نجيز أن يكون لله ولد لا من جهة الولادة ولا من جهة التبني ، ونرى أن تجويز ذلك جهل عظيم وإثم كبير ، لأنه لو جاز أن يكون

---

(١) انجيل يوحنا ٢٠ : ١٧ .
(٢) سقطت كلمة (الذي) من الأصل .
(٣) راجع : لوقا ١١ : ٢ ، ومتى ٦ : ٩ .
(٤) أنظر دراسة الامام الغزالي لهذه المسألة في كتابه : « الرد الجميل لإلهية عيسى تصريح الإنجيل » بتحقيقنا ص ١٧١ ــ ١٧٤ ، ص ١٨٦ .
(٥) أي هذا المتكلم المسلم .

أباً ليعقوب لجاز أن يكون جداً ليوسف ، ولو جاز أن يكون جداً وأباً وكان ذلك لا يوجب نسباً ، ولا يوهم مشاكلة في بعض الوجوه ، ولا ينقص من عظم ولا يحط من بهاء — لجاز أيضاً أن يكون عماً وخالا ، لأنه إن جاز أن نسميه من أجل المرحمة والمحبة والتأديب أباً جاز أن يسميه آخر من جهة التعظيم والتفضيل والتسويد أخاً ، ولجاز أن يجد له صاحباً وصديقاً ، وهذا ما لا يجوزه إلا من لا يعرف عظمة الله وصغر قدر الإنسان . وليس بحكيم من ابتذل نفسه في توقير عبده ، ووضع من قدره في التوفر على غيره . وليس من الحكمة أن تحسن إلى عبدك بأن تسيء إلى نفسك وتأتي من الفضل ما لا يجب بتضييع ما يجب ، وكثير الحمد ما لا يقوم بقليل الذم ، ولم يحمد الله ولم يعرف إلهيته من جوز عليه صفات البشر ، ومناسبة الخلق ومقاربة العباد .

وبعد فلا يخلو المولى في رفع عبده وإكرامه من أحد أمرين : إما أن يكون لا يقدر على كرامته إلا بهوان نفسه ، أو يكون على ذلك قادراً مع وفارة العظمة وتمام البهاء . وإن كان لا يقدر على رفع قدر غيره إلا بأن ينقص من قدر نفسه فهذا هو العجز وضيق الذّرْع . وإن كان على ذلك قادراً ، فآثر ابتذال نفسه ، والحط من شرفه فهذا هو الجهل الذي لا (يحتمل) .. والوجهان على الله جل جلاله منفيان .

ووجه آخر تعرفون به صحة قولي ، وصواب مذهبي ، وذلك أن الله تبارك وتعالى لو علم أنه قد كان فيما أنزل من كتبه على بني إسرائيل : إن أباكم كان بكري وابني ، وإنكم أبناء بكري ، لما كان غضب عليهم إذ قالوا : نحن أبناء الله [1] ، فكيف لا يكون ابن ابن الله ابنه ، وهذا من تمام الإكرام وكمال المحبة ؟ .. ولا سيما إن كان قال في التوراة : بنو إسرائيل أبناء بكري .

وأنت تعلم أن العرب حين زعمت أن الملائكة بنات الله كيف استعظم الله

(١) قال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه** ﴾ سورة المائدة آية ١٧ .

تعالى ذلك وأكبره وغضب على أهله ، وإن كان يعلم أن العرب لم تجعل الملائكة بنات على الولادة واتخاذ الصاحبة ، فكيف يجوز مع ذلك أن يكون الله قد كان يخبر عباده قبل ذلك بأن يعقوب ابنه ، وأن سليمان ابنه وأن عزيرا ابنه ، وأن عيسى ابنه ، فالله تعالى أعظم من أن يكون له أبوة من صفاته ، والإنسان أحقر من أن تكون بنوة الله تعالى من أنسابه .

والقول بأن الله يكون أباً وجداً وأخاً وعماً للنصارى ألزم وإن كان للآخرين لازماً و لأن النصارى تزعم أن الله هو المسيح ابن مريم ، وأن المسيح قال للحواريين : « إخوتي » فلو كان للحواريين أولاد لجاز أن يكون الله عمهم ... بل قد يزعمون أن مرقش هو ابن شمعون الصفا ، وأن زوزري ابنته ، وأن النصارى تقر أن في إنجيل مرقش [1] : « مازاذ أمك وإخوتك على الباب » ، وتفسير « مازاذ » معلم . فهم لا يمتنعون من أن يكون الله تبارك وتعالى أباً وجداً وعماً .

ولولا أن الله قد حكى عن اليهود أنهم قالوا : إن عزيرا ابن الله ، ويد الله مغلولة ، وإن الله فقير ونحن أغنياء . وحكى عن النصارى أنهم قالوا : المسيح ابن الله . وقال : ﴿ **قَالَت النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ** ﴾ [2] ، وقال : ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِين قَالُوا إنَّ اللهَ ثَالِث ثَلاثَة** ﴾ [3] لكنت لأن أخر من السماء أحب إليَّ من أن ألفظ بحرف مما يقولون ، ولكني لا أصل إلى إظهار جميع مخازيهم وما يسرون من فضائحهم إلا بالإخبار عنهم والحكاية منهم [4]

فإن قالوا : فأخبرونا عن الله ، وعن التوراة أليست حقاً ؟ قلنا : نعم .. قالوا :

---

(١) راجع انجيل مرقس ٣ : ٣٢ .

(٢) سورة التوبة آية ٣٠ .

(٣) سورة المائدة آية ٧٣ .

(٤) ندرك من هذه الإشارة حرارة الشعور الديني عند الجاحظ .

فإن فيها إسرائيل بكري وجميع ما ذكرتم عنا معروف في الكتب. قلنا: إن القوم إنما أتوا من قلة المعرفة بوجوه الكلام، ومن سوء الترجمة، مع الحكم بما يسبق إلى القلوب. ولعمري أن لو كانت لهم عقول المسلمين ومعرفتهم بما يجوز في كلام العرب، وما يجوز على الله مع فصاحتهم بالعبرانية لوجدوا لذلك الكلام تأويلاً حسناً [1]، ومخرجاً سهلا، ووجهاً قريباً، ولو كانوا أيضاً لم يعطلوا [2] في سائر ما ترجموا، لكان لقائل مقال، ولطاعن مدخل.

ولكنهم يخبرون أن الله تبارك وتعالى قال في العشر الآيات التي كتبتها أصابع الله: «إني أنا الله الشديد، وإني أنا الله الثقف، وأنا النار التي آكل النيران، آخذ الأبناء بحوب الآباء: القرن الأول والثاني والثالث إلى السابع» [3]. وأن داود قال في الزبور: «وافتح عينيك يا رب»، و«قم يا رب»، و«أصغ إليّ سمعك يا رب» [4]، وأن داود خبر أيضاً في مكان آخر عن الله تعالى فقال: «وانتبه الله كما ينتبه السكران الذي قد شرب الخمر» [5]. وأن موسى قال في التوراة: «خلق الله الأشياء بكلمته وبروح نفسه»، وأن الله قال في التوراة لبني إسرائيل: «بذراعي الشديدة أخرجتكم من أهل مصر» وأنه قال في كتاب أشعياء: «احمد الله حمداً جديداً حمده» وفي التوراة: «احمد الله حمداً جديداً، احمده في أقاصي الأرض، يملأ الجزائر وسكانها، والبحور والقفار وما فيها، ويكون

(١) التأويل رغبة حميمة لدى الجاحظ.

(٢) في نشرة فنكل: يعظلوا والمعاظلة في الكلام: تركيب بعضه فوق بعض وتتبع حواشيه كما ورد في اللسان،.

(٣) راجع ذلك في سفر الخروج، الإصحاح الرابع والثلاثين: ٧.

(٤) راجع المزمور السابع عشر: ١، ٢٨ والمزمور الحادي والستين: ١.

(٥) راجع المزمور الثامن والسبعين: ٦٥.

بنو قيدار في القصور، وسكان الجبال[1] » يعني قيدار بن اسماعيل « ليصيحوا ويصيروا لله الفخر والكرامة، ويسبحوا بحمد الله في الجزائر»[2] ، وأنه قال على إثر ذلك: « ويجيء الرب كالجبار، وكالرجل الشجاع المجرب، ويزجر، ويصرخ ويهيج الحرب والحمية، ويقتل أعداءه يفرح السماء والأرض »[3] وأن الله قال أيضاً في كتاب أشعياء: « سَكَتُّ، قال: هو متى أسكت، مثل المرأة التي قد أخذها الطلق للولادة، أتلهف وإن تراني أريد أخرب الجبال والشعاب، وآخذ بالعور في طريق لا يعرفونه »[4] ، وكلهم على هذا اللفظ العربي مجمع، ومعنى هذا لا يجوزه أحد من أهل العلم، ومثل هذا كثير تركته لمعرفتكم به..

وأنت تعلم أن اليهود لو أخذوا القرآن فترجموه بالعبرانية لأخرجوه من معانيه ولحولوه عن وجوهه. وما ظنك بهم إذا ترجموا ﴿ **فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ** ﴾[5] و﴿ **وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي** ﴾[6] و﴿ **السَّمواتُ مَطوِيَّاتٌ بيمينِهِ** ﴾[7] و﴿ **عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾[8] و﴿ **نَاضِرَةٌ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾[9] وقوله ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكا** ﴾[10]

---

(١) راجع سفر الخروج ١٣ : ٣، والمزامير ١٣٦ : ١١ — ١٢، وسفر تثنية الاشتراع الاصحاح ٥ : ١٥، الاصحاح ٤ : ٣٤.

(٢) راجع أشعياء ٤٢ : ١٠، ١١، ١٢ وقد أخطأ فنكل فكتب « يلبسون » مكان « يسبحوا ».

(٣) راجع أشعياء ٤٢ : ١٤.

(٤) جاء في سفر أشعياء: « أسير العمى في طريق لا يعرفونه » ولم يوفق الأستاذ هارون في إثباته « العرب » مكان « العور ».

(٥) سورة الزخرف آية ٥٥.

(٦) سورة طه آية ٣٩.

(٧) سورة الزُمر آية ٦٧.

(٨) سورة طه آية ٥.

(٩) سورة القيامة آية ٢٢.

(١٠) سورة الاعراف آية ١٤٣.

و﴿ كَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا[1] ﴾ و﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ والمَلَكُ صَفاً صَفاً[2] ﴾.

وقد تعلم أن مفسري كتابنا، وأصحاب التأويل منا أحسن معرفة، وأعلم بوجوه الكلام من اليهود ومتأولي الكتب، ونحن قد نجد في تفسيرهم ما لا يجوز على الله في صفته: لا[3] عند المتكلمين في مقاييسهم، ولا عند النحويين في عربيتهم.

فما ظنك باليهود مع غباوتهم، وغيهم، وقلة نظرهم وتقليدهم؟..

وهذا باب قد غلطت فيه العرب أنفسها، وفصحاء أهل اللغة إذا غلطت قلوبها، وأخطأت عقولها فكيف بغيرها ممن لا يعلم كعلمها؟..

سمع بعض العرب قول جميع العرب: « القلوب بيد الله »، وقولهم في الدعاء: « نواصينا بيد الله »، وقوله جل ذكره: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسوطَتَانِ ﴾[4]، وقولهم: هذا من أيادي الله ونعمه عندنا »، وقد كان من لغتهم أن الكف أيضاً يد، كما أن النعمة يد، والقدرة يد، فغلط الشاعر[5] فقال:

هون عليك فإنّ الأمور بكف الإله مقاديرها

(١) سورة النساء آية ١٦٤.
(٢) سورة الفجر آية ٢٢.
(٣) في نشرة فنكل: (ولا)، والواو هنا لا ضرورة لها.
(٤) سورة المائدة آية ٦٤.
(٥) هو محمد بن حازم الباهلي، شاعر عباسي مطبوع، مدح المأمون بن الرشيد (عن الأستاذ عبد السلام هارون).

وقد كان إبراهيم بن سيار النظام[1] يجيب بجواب ، وأنا ذاكره إن شاء الله وعليه كانت علماء المعتزلة ، ولا أراه مقنعاً ولا شافياً ، وذلك أنه كان يجعل الخليل مثل الحبيب ، ومثل الولي ، وكان يقول : خليل الرحمن مثل حبيبه ووليه وناصره ، وكانت الخلة والولاية والمحبة سواء ، قالوا : ولما كانت كلها عنده سواء ، جاز أن يسمى عبداً له ولداً ، لمكان التربية التي ليست بحضانة ، ولمكان الرحمة التي لا تشتق من الرحم ، لأن إنساناً لو رحم جرو كلب فرباه ، لم يجز أن يسميه ولداً ، ويسمي نفسه له أباً ، ولو التقط صبياً فرباه جاز أن يسميه ولداً ، ويسمي نفسه له أباً ، لأنه شبيه ولده ، وقد يولد لمثله مثله ، وليس بين الكلاب والبشر أرحام . فإذا كان شبه الإنسان أبعد من الله تعالى من شبه الجرو بالإنسان ، كان الله أحق بأن يجعله ولده ، وينسبه إلى نفسه .

قلنا لإبراهيم النظام ـــ عند جوابه هذا وقياسه الذي قاس عليه في المعارضة والموازنة بين قياسنا وقياسه : أرأيت كلباً ألف كـلاَّبه ، وحامى وأحمى دونه ، فأحياه بكسبه ، ولزمه على خلائقه ، واستأثره بالصيد دونه[2] ، هل يجوز أن يتخذه بذلك كله خليلاً ، مع بعض التشابه والتناسب؟ فإذا قال : لا ، قلنا : فالعبد الصالح أبعد شبهاً من الله من ذلك الكلب المحسن إلى كلاَّبه ، فكيف جاز في قياسك أن يكون الله خليل من لا يشاكله لمكان إحسانه ، ولا يجوز للكلاَّب أن

---

(١) من متقدمي متكلمي أهل الاعتزال ، ومن أنبه تلاميذ أبي الهذيل العلاف ، أسس مدرسة لمحاربة فلسفة الدهريين الهلينية الاسيوية توفي في بغداد سنة ٢٢٠ هـ تقريباً ، من آثاره كتاب : النكت وتوجد منه بقايا من نهج البلاغة ، وكتابا : التوحيد والعالم وقد ذكرهما وأفاد منهما الخياط .
أنظر ترجمته في : طبقات المعتزلة ٤٩ ـــ ٥١ ، لسان الميزان ١ ـــ ٦٧ تاريخ التراث العربي جـ ٤ ، المجلد الاول ص٦٨ ـــ ٧٠ وكتاب ابراهيم بن سيار النظام للدكتور أبي ريدة ، وأدب المعتزلة للدكتور عبد الحليم بلبع .

(٢) سقطت جملة : « فأحياه بكسبه ، ولزمه على خلائقه ، وأستأثره بالصيد دونه » من نشرة الاستاذ عبد السلام هارون .

يسمي كلبه خليلاً أو ولداً لمكان حسن تربيته له وتأديبه إياه، ولمكان حسن الكلب وكسبه عليه، وقيامه مقام الولد الكاسب، والأخ والبار؟!.. والعبد الصالح لا يشبه الله في وجه من الوجوه، والكلب قد يشبه كلاًّبه لوجوه كثيرة، بل ما أشبهه به مما خالفه فيه.. وإن كانت العلة التي منعت من تسمية الكلب خليلاً وولداً بعد شبهه من الإنسان.

فلو قلتم: فما الجواب الذي أجبت فيه، والوجه الذي ارتضيته؟..

قلنا: إن إبراهيم، صلوات الله عليه، وإن كان خليلاً فلم يكن خليلاً بخلة كانت بينه وبين الله تعالى، لأن الخلة والإخاء والصداقة والتصافي والخلطة وأشباه ذلك، منفية عن الله عز ذكره، فيما بينه وبين عباده، على أن الإخاء والصداقة داخلتان في الخلة والخلة أعم الاسمين، وأخص الحالين، ويجوز أن يكون إبراهيم خليلاً بالخلة التي أدخلها الله على نفسه وماله (وبين هذا)[1] وبين أن يكون خليلاً بخلة بينه وبين ربه فرق ظاهر وبون واضح. وذلك أن إبراهيم عليه السلام اختل في الله تعالى اختلالا لم يختله أحد قبله لقذفهم إياه في النار، وذبحه ابنه[2]، وحمله على ما له في الضيافة والمواساة والأثرة[3]، وبعداوة قومه، والبراءة من أبويه في حياتهما وبعد موتهما، وترك وطنه، والهجرة إلى غير داره ومسقط رأسه، فصار لهذه الشدائد مختلاً في الله وخليلاً في الله..

والخليل والمختل سواء في كلام العرب، والدليل على أن يكون الخليل من الخَلّة، كما يكون من الخُلّة، قول زهير بن أبي سلمى وهو يمدح هرماً:

وإن أتاه خليل يوم مسألة يقول: لا عاجز مالي ولا حرم

(١) سقطت من الاصل.
(٢) كان الاولى أن يقول: وإقدامه على ذبح ابنه.
(٣) الأصوب: الايثار، ولعله خطأ من الناسخ.

وقال آخر :

وإني إلى أن تسعفاني بحاجة إلى آل ليلى مرة لخليل

وهو لا يمدحه بأن خليله وصديقه يكون فقيراً سائلاً يأتي يوم المسألة ويبسط يده للصدقة والعطية ، وإنما الخليل في هذا الموضع من الخَلّة والاختلال لا من الخُلّة والخلال .

وكان إبراهيم عليه السلام حين صار في الله مختلا ، أضافه الله إلى نفسه ، وأبانه بذلك عن سائر أوليائه فسماه « خليل الله » من بين الأنبياء ، كما سمى الكعبة « بيت الله » من بين جميع البيوت ، وأهل مكة « أهل الله » من بين جميع البلدان، وسمى ناقة صالح عليه السلام « ناقة الله » من بين جميع النوق ... وهكذا كل شيء عظمه الله تعالى من خير وشر وثواب وعقاب ، كما قالوا : دعه في لعنة الله وفي نار الله وفي حرقه . وكما قال للقرآن « كتاب الله » وللمحرم « شهر الله » وعلى هذا المثال قيل لحمزة رحمة الله ـ عز ذكره ـ ورضوانه عليه « أسد الله » ، ولخالد رحمة الله عليه « سيف الله » تعالى .

وفي قياسنا هذا : لا يجوز أن الله خليل إبراهيم كما يقال إن إبراهيم خليل الله .

فان قال قائل : فكيف لم يقدموه على جميع الأنبياء إذ كان الله قدمه بهذا الاسم الذي ليس لأحد مثله ؟..

قلنا : إن هذا الاسم اشتق له من عمله وحاله وصفته ، وقد قيل لموسى عليه السلام : « كليم الله » وقيل لعيسى : « روح الله » ولم يقل ذلك لإبراهيم ولا لمحمد صلوات الله عليهما ، وإن كان محمد صلى الله عليه وسلم أرفع درجة منهم لأن الله تعالى كلم الأنبياء عليهم السلام على ألسنة الملائكة . وكلم موسى كما كلم الملائكة فلهذه العلة قيل « كليم الله » ، وخلق[١] في نطف الرجال أن قذفها في

---

(١) لم يذكر في الكلام مفعول هذا الفعل.

أرحام النساء على ما أجرى عليه تركيب العالم وطباع الدنيا، وخلق في رحم مريم روحاً وجسداً على غير مجرى العادة وما عليه المناكحة، فلهذه الخاصة قيل له «روح الله».

وقد يجوز أن يكون في نبي من الأنبياء خصلة شريفة، ولا تكون تلك الخصلة بعينها في نبي أرفع درجة منه، ويكون في ذلك النبي خصال شريفة ليست في الآخر، وكذلك جميع الناس كالرجل يكون له أبوان فيحسن برهما وتعاهدهما والصبر عليهما، وهو أعرج، لا يقدر على الجهاد وفقير لا يقدر على الإنفاق، ويكون آخر لا أب له ولا أم له، وهو ذو مال كثير وخلق سوي وجلد ظاهر فأطاع هذا بالجهاد والإنفاق وأطاع ذلك ببر والديه والصبر عليهما. والكلام إذا حرك تشعيب وإذا ثبت أصله كثرت فنونه واتسعت طرقه.. ولولا ملالة القارىء، ومداراة المستمع لكان بسط القول في جميع ما يعرض أتم للدليل وأجمع للكتاب، ولكنا إنما ابتدأنا الكتاب لنقتصر به على كسر النصرانية فقط.

فصل منه

قلنا في جواب آخر:

إن كان المسيح إنما صار ابن الله لأن الله خلقه من غير ذكر، فآدم وحواء إذا كانا من غير ذكر وأنثى أحق بذلك، إن كانت العلة في اتخاذه ولداً أنه خلقه من غير ذكر[1].

---

(١) أنظر جواب القاضي أبي الوليد الباجي على رسالة راهب فرنسا الى المقتدر بالله تعالى صاحب سرقسطة، فقد عرض فيه لذكر هذه المسألة وتفصيلها، مخطوط بمكتبة الاسكوريال بمدريد رقم ٥٣٨، وهو قيد الطبع بتحقيقنا.

وإن كان ذلك لمكان التربية، فهل رباه إلا كما ربي[1] موسى، وداود، وجميع الأنبياء؟!.. وهل تأويل رباه إلا غذاه ورزقه وأطعمه وسقاه؟.. فقد فعل ذلك بجميع الناس، ولم سميتم سقيه لهم وإطعامه إياهم تربية؟!.. ولم رباه وأنتم لا تزيدون إلا غذاه، ورزقه، وهو لم يحضنه ولم يباشر تقليبه، ولم يتول بنفسه سقيه وإطعامه، فيكون ذلك سبباً له دون غيره، وإنما سقاه لبن أمه في صغره وغذاه بالحبوب والماء في كبره؟؟.

فصل منه

والأعجوبة في آدم عليه السلام أبدع، وتربيته أكرم، ومنقلبه أعلى وأشرف، إذ كانت السماء داره، والجنة منزله والملائكة خدامه، بل هو المقدم بالسجود، والسجود أشد الخضوع.. وإن كان بحسن التعليم والتثقيف فمن كان الله تعالى يخاطبه، ويتولى مناجاته دون أن يرسل إليه ملائكته، ويبعث إليه رسله، أقرب منزلة، وأشرف مرتبة، وأحق بشرط التأديب، وفضيلة التعليم.. وكان الله تعالى يكلم آدم كما كان يكلم ملائكته، ثم علمه الأسماء كلها، ولم يكن ليعلمه الأسماء كلها إلا بالمعاني كلها. فإذا ذلك كذلك، فقد علمه جميع مصالحه، ومصالح ولده، وتلك نهاية طباع الآدميين، ومبلغ قوى المخلوقين.

فصل منه

فأما قولهم إنا نقول على الناس ما لا يعرفونه، ولا يجوز أن يدينوا به، وهو قولنا إن اليهود قالت: إن الله تعالى فقير ونحن أغنياء، وأنها قالت: إن يد الله مغلولة،

---

(١) في نشرة فنكل: (فهل رباه الا حماد بن موسى) وهو كلام غير مفهوم، وقد تنبه الاستاذ عبد السلام هارون للتصحيف الدقيق في عبارة المخطوطة.

وأنها قالت : إن عزيراً ابن الله ، وهم مع اختلافهم ، وكثرة عددهم ينكرون ذلك ، ويأبونه أشد الإباء . قلنا لهم : إن اليهود لعنهم الله تعالى ، كانت تطعن على القرآن ، وتلتمس نقضه ، وتطالب عيبه ، وتخطىء فيه صاحبه ، وتأتيه من كل وجه ، وترصده بكل حيلة ، لتلبس على الضعفاء وتستميل قلوب الأغبياء . فلما سمعت قول الله تعالى لعباده الذين أعطاهم قرضاً ، وسألهم قرضاً على التضعيف فقال عز من قائل :

﴿ مَنْ ذَا الذِي يُقْرِضِ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ (١) .

قالت اليهود على وجه الطعن والعيب والتخطئة والتعنت : تزعم أن الله يستقرض منا ، وما استقرض منا إلا لفقره وغنانا ، فكفرت بذلك القول ، إذ كان على وجه التكذيب والتخطئة ، لا على وجه أن دينها كان في الأصل أن الله فقير وأن عباده أغنياء .

وكيف يعتقد إنسان أن الله تعالى عاجز عما يقدر عليه (٢) مع إقراره بأنه الذي خلقه ورزقه ، وإن شاء حرمه وإن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه ، وقدرته على جميع ذلك كقدرته على واحد ، ومجاز الآية في اللغة واضح ، وتأويلها بين . وذلك أن الرجل منهم كان يقرض صاحبه لإرفاقه (٣) ليعود إليه مع أصل ماله اليسير من ربحه ، ثم هو مخاطر به إلى أن يعود في ملكه ، فقال لهم بحسن عادته ومنته : آسوا فقراءكم ، وأعطوا ــ في الحق ــ أقرباءكم من المال الذي أعطيتكم ، والنعمة التي خولتكم بأمري إياكم ، وضماني لكم ، فأعتده منكم قرضاً ، وإن كنت أولى

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٥ ، وسورة الحديد آية ١١ . وهنالك خطأ في نص الآية الكريمة في نشرة فنكل .

(٢) لعله سقطت كلمة بعد الجار والمجرور ، وبتقديرها يكون الكلام : « عاجز عما يقدر عليه عبده » .

(٣) أي : لنفعه .

به منكم ، فأنا موفيكم حقوقكم إلى ما لا ترتقي إليه همة ، ولا تبلغه أمنية ، على أنكم قد أمنتم من الخطار وسلمتم من التغرير .

والرجل يقول لعبده : أسلفني درهماً عند الحاجة تعرض له ، وهو يعلم أن عبده وماله له ، وإنما هذا كلام وفعال يدل على حسن الملكة ، والتفضل على العبد والأمة ، وإخبار منه لعبده أنه سيعيد إليه ما كانت سخت به نفسه . وهذا ليس بغلط في الكلام ولا بضيق فيه ، ولكن المتعنت ليتعلق بكل سبب ويتشبث بكل ما وجد . .

وأما إخباره عن اليهود أنها قالت : « يد الله مغلولة » فلم يذهب إلى أن اليهود ترى بأن ساعده (١) مشدودة إلى عنقه بغل . وكيف يذهب إلى هذا ذاهب ويدين به داين ؟ لأنه لا بد من أن يكون يذهب إلى أنه غل نفسه أو غله غيره وأيهما كان فإنه منفي عن وهم كل بالغ يحتمل التكليف وعاقل يحتمل التثقيف .

ولكن اليهود قوم جبرية (٢) ، والجبرية تبخل الله مرة وتظلمه مرة ، وإن لم تقر بلسانها وتشهد على إقرارها ، فقولهم « يد الله مغلولة » يعنون بره وإحسانه ، وقولهم : مغلولة لا (يعني) (٣) أن غيره حبسه ومنعه ، ولكن إذا كان عندهم أنه الذي منع أياديه ، وحبس نعمه ، فهي محبوسة بحبسه ، وممنوعة بمنعه . والذي يدل على أنهم أرادوا باليدين النعمة والإفضال ، دون الساعد والذراع جواب كلامهم حين قال : « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » دليلاً على ما قلنا ، وشاهداً على ما وصفنا .

---

(١) أنظر خاتمة دراستنا التي صدرنا بهذا هذا الكتاب عن رأي أهل السنة والجماعة في صفات الله وأسمائه ، ورفضهم تأويلات الجاحظ والمعتزلة .

(٢) الجبر يعني : نفي الفعل عن العبد حقيقة ونسبته الى الله تعالى ، والجبرية أصناف .
أنظر للشهرستاني : الملل والنحل ص ٨٥ جـ١ طبعة محمد سيد كيلاني .

(٣) إضافة يقتضيها السياق وضعها الأستاذ عبد السلام هارون وهي مناسبة جداً .

فإن قالوا: فكيف لم يقل إن اليهود بخلت الله، وجحدت إحسانه دون أن يقال إن يد الله مغلولة ؟؟

قلنا: إن أراد الله الإخبار عن كفر قوم وسخطه عليهم فليس لهم عليه أن يعبر عن دينهم وعيوبهم بأحسن المخارج، ويجليها بأحسن الألفاظ، وكيف وهو يريد التنفير عن قولهم وأن يبغضهم إلى من سمع ذلك عنهم. ولو أراد الله تعالى تليين الأمر وتصغيره وتسهيله، لقال قولاً غير هذا، وكل صدق جائز في الكلام. فهذا مجاز مسألتهم في اللغة، وهو معروف عند أهل البيان والفصاحة.

وأما قولهم: إن اليهود لا تقول إن عزيراً ابن الله، فإن اليهود في ذلك على قولين:

أحدهما: خاص، والآخر: عام في جماعتهم.

فأما الخاص: فإن ناساً منهم لما رأوا عزيراً أعاد عليهم التوراة من تلقاء نفسه، بعد دروسها، وشتات أمرها، غلوا فيه، وقالوا ذلك وهو مشهور من أمرهم، وإن فريقاً من بقاياهم باليمن والشام وداخل بلاد الروم. وهؤلاء بأعيانهم يقولون: «إن إسرائيل الله ابنه». وإذا كان ذلك على خلاف تناسب الناس، وصار ذلك الاسم لعزير[1] بالطاعة والعلامة والمرتبة، لأنه من ولد إسرائيل.

والقول الذي هو عام فيهم: أن كل يهودي ولده إسرائيل، فهو ابن الله إذ لم يجدوا ابن ابن ــ قط ــ إلا وهو ابن.

(١) في مسألة (عزير) و (عزرا) أنظر للسموأل بن يحيى المغربي كتاب «افحام اليهود» بتحقيقنا. وللأخ الدكتور عبد الرحمن عوف «عزير وعزرا» رسالة ماجستير بدار العلوم، ١٩٧٤.

فصل منه

فان قالوا: أليس المسيح روح الله وكلمته كما قال عزّ ذكره: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [1] أو ليس قد أخبر عن نفسه حين ذكر أمه أنه نفخ فيها من روحه؟.. أو ليس مع ذلك قد أخبر عن حصانة فرجها وطهارتها؟.. أو ليس مع ذلك قد أخبر أنه لا أب له؟ وأنه كان خالقاً إذ كان يخلق من الطين كهيئة الطير فيكون حياً طائراً، فأي شيء بقي من الدلالات على مخالفته بمشاكلة جميع الخلق، ومباينة جميع البشر [2] ؟..

قلنا لهم: إنكم إنما سألتمونا عن كتابنا وما يجوز في لغتنا وكلامنا، ولم تسألونا عما يجوز في لغتكم وكلامكم، ولو أننا جوزنا في لغتنا ما لا يجوز، وقلنا على الله ما لا نعرف كنا بذلك ــ عند الله والسامعين ــ في حد المكابرين وأسوأ حالا من المنقطعين، وكنا قد أعطيناكم أكثر مما سألتم وجزنا بكم فوق أمنيتكم.

ولو كنا إذا قلنا: «عيسى روح الله وكلمته».. وجب علينا ــ في لغتنا ــ أن يجعله الله ولداً ونجعله ــ مع الله تعالى ــ إلهاً، ونقول إن روحاً كانت في الله، فانفصلت منه إلى بدن عيسى وبطن مريم.

فكنا إذا قلنا: إن الله سمّى جبريل روح الله وروح القدس، وجب علينا أن نقول فيه ما يقولون في عيسى، وقد علمتم أن ذلك ليس من ديننا، ولا يجوز ذلك، بوجه من الوجوه، عندنا فكيف نظهر للناس قولاً لا نقوله وديناً لا نرتضيه..؟.
ولو كان قوله جل ذكره: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [3]، يوجب نفخاً

---

(١) سورة النساء آية ١٧١.
(٢) في معنى العبارة غموض ولعله راجع الى اضطرابها.
(٣) سورة التحريم آية ١٢.

كنفخ الزق، أو كنفخ الصائغ في المنفاخ، وأن بعض الروح التي كانت فيه انفصلت إلى بطنه وبطن أمه، لكان قوله في آدم يوجب له ذلك، لأنه قال:

﴿وَبَدأَ خَلْقَ الإنْسَانِ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ـ إلى قوله ـ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾[1] وكذلك قوله: ﴿فإذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِين﴾[2].

والنفخ يكون من وجوه، والروح يكون من وجوه، فمنها ما أضافه إلى نفسه، ومنها ما لم يضفه إلى نفسه، وإنما يكون ذلك على قدر ما عظم من الأمور، فما سمى روحاً وأضافه إلى نفسه جبريل الروح الأمين وعيسى بن مريم. والتوفيق كقول موسى حين قال: إن بني فلان أجابوا فلاناً النبي، ولم يجيبوك فقال له: «إن روح الله مع كل أحد»[3].

وأما القرآن فإن الله سماه روحاً، وجعله يقيم للناس مصالحهم في دنياهم وأبدانهم، فلما اشتبها من هذا الوجه ألزمها اسمها فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم:

﴿وَكَذلِكَ أوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنَا﴾[4] وقال: ﴿تَنَزَّلُ المَلائكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾[5].

فصل منه

قد قلنا في جواباتهم، وقومنا مسائلهم بما لم يكونوا ليبلغوه لأنفسهم، ليكون الدليل تاماً والجواب جامعاً، وليعلم من قرأ هذا الكتاب وتدبر هذا الجواب، أنا

---

(١) سورة السجدة آية ٧ ـ ٩.
(٢) سورة الحجر آية ٢٩.
(٣) راجع سفر العدد ١١ : ٢٧ ـ ٢٩.
(٤) سورة الشوري آية ٥٢.
(٥) سورة القدر آية ٤.

لم نغتنم عجزهم، ولم ننهز غربهم، وأن الإدلال بالحجة، والثقة بالفلج والنصرة، هو الذي دعانا إلى أن نخبر عنهم بما ليس عندهم، وألا نقول في مسألتهم بمعنى لم ينتبه له منتبه، أو يشر[1] إليه مشير، وألا يوردوا فيما يستقبلون على ضعفائنا، ومن قصر نظره منا شيئاً إلا الجواب قد سلف فيه وألسنتهم قد أدلت به.

وسنسألهم إن شاء الله، ونجيب عنهم، ونستقصي لهم في جواباتهم كما سألنا لهم أنفسنا واستقصينا لهم مسائلهم.

فيقال لهم: هل يخلو المسيح أن يكون إنساناً بلا إله؟ أو إلهاً بلا إنسان؟.. أو أن يكون إلهاً وإنساناً؟..

فإن زعموا أنه كان إلهاً بلا إنسان، قلنا لهم:

فهو الذي كان صغيراً فشب والتحى، والذي كان يأكل ويشرب وينجو[2] ويبول، وقتل — بزعمكم — وصلب، وولدته مريم وأرضعته، أم غيره هو الذي كان يأكل ويشرب على ما وصفنا؟...

فأي شيء معنى الإنسان إلا ما وصفنا وعددنا؟.. وكيف يكون إلهاً بلا إنسان وهو الموصوف بجميع صفات الإنسان؟.. وليس القول في غيره ممن صفته كصفته إلا كالقول فيه (كاشتمالها)[3] على غيره.

وإن زعموا أنه لم ينقلب عن الإنسانية، ولم يتحول عن جوهر البشرية، ولكن لما كان اللاهوت فيه صار خالقاً سمي إلهاً، قلنا لهم: خبرونا عن اللاهوت أكان فيه وفي غيره أم كان فيه دون غيره؟..

---

(١) في نشرة فنكل (يشير) وهو غير صحيح.
(٢) النجو: ما يخرج من البطن من ريح وغيره (لسان العرب).
(٣) هكذا في الأصل، ولعل الأصوب أن تكون: لاشتمالها.

فإن زعموا أنه كان فيه وفي غيره فليس هو أولى بأن يكون خالقاً ويتسمى إلهاً من غيره ، وإن كان فيه دون غيره فقد صار اللاهوت جسماً .

وسنقول في الكسر عليهم إذا صرنا إلى القول في التشبيه وهو قول منعلهم [1] ، والذي كان عليه جماعتهم إلا من خالفهم من متكلميهم ومتفلسفيهم ، فإنهم يقولون بالتشبيه والتجسيم فراراً من كثرة الشناعة وعجزاً عن الجواب ، وكفى بالتشبيه قبحاً . وهو قول يعم اليهود ، وإخوانهم من الرافضة وشياطينهم من المشبهة الحشوية [2] والنابتة [3] . وهو بعد متفرق في الناس ، والله تعالى المستعان [4] .

---

(١) بمعنى داهيتهم أو الظاهر فيهم (اللسان) ، وقرأها الاستاذ عبد السلام هارون : « معظمهم » .

(٢) أنظر الجزء الاول من (الملل والنحل) للشهرستاني ، نشرة سيد كيلاني ص١٠٣ ، ١١٤ .

(٣) أنظر رسائل الجاحظ جـ٢ ص٥ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٨ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ .

(٤) نشرة (فنكل) عن مخطوطة التيمورية رقم ١٩ أدب ، وهي بخط محمد بن عبدالله الزمراني ، بتاريخ ذي القعدة سنة ١٣١٥ هـ ،

وهي منسوخة عن نسخة كتبت في شهر رجب سنة ٤٠٣ هـ ، بخط أبي القاسم عبيد الله بن علي .

بعض مراجع التحقيق والدراسة

– **ابن اسحق : محمد**

السيرة ، نشرة فستنفلد ، ١٨٥٨م ، جوتنجن .

– **الأعظمي : دكتور محمد مصطفى**

دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ، طبعة الرياض ، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .

– **ابن أبي أصيبعة:**

طبقات الأطباء ، نشرة نزار رضا ، بيروت .

– **أفنشيوس : سعيد بن البطريق:**

« التاريخ المجموع » المطبعة الكاثوليكية ١٩٠٥م .

– **الباجي : أبو الوليد**

جوابه على رسالة راهب فرنسا إلى المقتدر بالله حاكم سرقسطة ، بتحقيق د. محمد عبدالله الشرقاوي ١٤٠٤هـ الرياض .

– **الترجمان : عبدالله « القس الكاثوليكي أنسيلموتورميدا »**

تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب (بدون تاريخ) ونشرة الدكتور محمود حماية دار المعارف بالقاهرة ط ٢ .

– **ابن تيمية : شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم**

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، طبعة المدني بالقاهرة .

– **الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر:**

ـ ثلاث رسائل للجاحظ ، بتحقيق يوشع فنكل ، المطبعة السلفية بالقاهرة .

ـ رسائل الجاحظ ، بتحقيق عبد السلام هارون ، طبع الخانجي بمصر .

ـ **جورج فيدا :**

الفكر اليهودي وتأثره بالفلسفة الإسلامية ، ترجمة د. علي سامي النشار وعباس الشربيني ، نشر بالمعارف بالإسكندرية ، طبعة ثانية .

ـ **الجويني : إمام الحرمين أبو المعالي**

شفاء العليل في الرد على من بدل التوراة والإنجيل ، نشرة الدكتور أحمد السقا ، نشر الرئاسة العامة للبحوث العلمية بالرياض ، ١٤٠٤ هـ .

ـ **ابن حزم الأندلسي الظاهري المتوفي سنة ٥٤٨ هـ :**

الفصل في الملل والأهواء والنحل ، مكتبة المثنى ببغداد .

ـ **الحسن بن أيوب :**

رسالته إلى أخيه علي بن أيوب ، يشرح له فيها سبب إسلامه ضمن كتاب الجواب الصحيح لابن تيمية .

ـ **الخزرجي أبو عبيدة الأندلسي :**

مقامع هامات الصلبان (نسخة خطية بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود رقم ٤٥٤ (وقد نشره محققاً محمد شامة بعنوان « بين الإسلام والمسيحية » نشر مكتبة وهبة بمصر .

ـ **الخطيب البغدادي :**

تقييد العلم ، بتحقيق يوسف العشي ، دمشق ، ١٩٨٩ م .

ـ **الفكر العربي ومكانه في التاريخ :**

ترجمة د. تمام حسان عالم الكتب بالقاهرة .

ـ **رد عيسى بن إسحاق بن زرعة النصراني على كتاب أبي القاسم البلخي :**

المسمى : أوائل الأدلة .

- **رد يحيى بن عدي النصراني اليعقوبي على رسالة الكندي الفيلسوف المسماة:**

إبطال التثليث على أصول الفلسفة.

- **زيادة النصب راسي:**

البحث الصريح في أيما هو الدين الصحيح (مصورة عن نسخة خطية بجامعة الملك سعود بالرياض).

- **سباط، بولس:**

مباحث دينية فلسفية، القاهرة، ١٩٢٩م.

- **سزكين، د. فؤاد:**

تاريخ التراث العربي، ترجمة د. محمد فهمي حجازي نشر جامعة الإمام بالرياض.

- **السموأل بن يحيى المغربي المتوفي سنة ٥٧٠هـ:**

(كان يهودياً فأسلم).

إفحام اليهود، تحقيق الدكتور محمد عبدالله الشرقاوي، الرياض ١٤٠٥هـ.

- **الشهرستاني:**

الملل والنحل، نشرة محمد سيد كيلاني، طبع صبيح، القاهرة، ١٩٧٦هـ.

- **الطبري: علي بن ربن:**

الدين والدولة، تحقيق عادل نويهض ط ٣ دار الآفاق، الجديدة بيروت.

- **العسقلاني، ابن حجر:**

فتح الباري، بتصحيح الشيخ عبد العزيز بن باز، نشر الرياسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة بالرياض.

- **القرافي، أحمد بن إدريس:**

الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة (نسختان مصورتان عن مخطوطتين إحداهما بجامعة الإمام برقم ٤٥٤ مجموع، والأخرى بجامعة الملك سعود).

- **القرطبي المفسّر:**

الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ، نشره دار التراث العربي بالقاهرة بدون تاريخ .

- **عوف ، د. عبد الرحمن :**

عزير وعزرا ، رسالة ماجستير بدار العلوم ، ١٩٧٤ م .

- **الغزالي ، أبو حامد :**

الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل ، بتحقيق الدكتور محمد عبدالله الشرقاوي ، نشر دار أمية ، ١٩٨٣ م .

- **ابن قيم الجوزية :**

إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، بتحقيق محمد حامد الفقي ، بيروت ،

هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، طبعة مكتبة المعارف بالرياض .

- **ابن كثير:**

تفسير القرآن العظيم ، دار الأندلس ، بيروت .

- **الإمام مسلم:**

صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ١٣٧٤ هـ. القاهرة .

- ابن منظور :

لسان العرب ، نشرة يوسف خياط ، دار اللسان ، بيروت .

- **نفتالي فيدر:**

التأثيرات الإسلامية في العبادات اليهودية ، ترجمة الدكتور محمد سالم الجرح ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .

- **هنداوي : إبراهيم موسى :**

« الأثر العربي في الفكر اليهودي » طبعة الأنجلو المصرية ١٩٦٥ م .

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة